ليو تولستوي

رواية

سَعادةُ الأُسرة

ترجمة : مختار الوكيل



سعادة الأسرة



تولستوي، ليف نيكلاي فيتش، ، 1828-1910
سعادة الأسرة/ تأليف ليو تولستوي، ترجمة مختار الوكيل – القاهرة
أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2017، 157 ص 14.5x 21.5 سم.

1- القصص الروسية

أ- الوكيل، مختار (مترجم)

ب- العنوان 891.73

رئيس تحرير، طارق هاشم

العنوان: سعادة الأسرة

المؤلف: ليو تولستوي

المترجم: مختار الوكيل

طبعة أقلام عربية الأولى 2018

رقم الإيداع: 2017/28549

العنوان: 1 كريم الدولة – أمام جروبي – طاعت حرب

تليفاكس: 20225740228+ موبايل: 201011745806+

 info@daraqlam.com

 Aqlam Arabia Bookstore

www.daraqlam.com

سعادة الأسرة

بقلم

ليو تولستوي

ترجمة

مختار الوكيل



مقدمة

قلّما يتاح لنا أن ننعمَ بترجمةٍ لأثر أدبي عالمي يقومُ بها شاعرٌ ثـائر قـدير، كما وفّـق الـشاعر النّابـه "مختـار الوكيـل" في هـذه الترجمـة البديعـة لقـصة "سعادة الأسرة" للفيلسوف الأديب العالمي "ليوتولستوي".

و"مختار الوكيـل" قـاصٌّ وشـاعر بفطرتـه، خبـيرٌ بالطيبـات، ولـه أسـلوبٌ رشيق في نثره وشعره، وله عنايةٌ خاصـة بـالأدب الغـربي لمحْناهـا في ترجماتـه ودراساته للشاعريْن "شـلي" و"كيـتس" ولغـيرهما مـن زعـماء الأدب الأوروبي، ومقرون بغيرته عـلى الأدب العـربي الـذي يخدمُـه بمثـل هـذا النقـل للروائـع الأدبية الغربية حتى تصبح جزءًا من أدبنا الحي.

فهل لي أنْ أرحّب كلّ الترحيب بهذا النشاط المثمر، وهل لي أنْ أرجـو لـه التوفيقَ في نقل جميع تواليف "تولـستوي" إلى لغـة الـضّاد مـا دام قـد وجـدَ الناشر المقدّر لهذه الخدمة الأدبية الشريفة؟

يعدّ "تولستوي" من أظهر أعـلام الأدب الحـديث، ويـصفه "برتـون راسكو" مؤلف "جبابرة الأدب" بـ "تولستوي" النقـاش إشـارة إلى قوّتـه الرسمية الخارقـة في تـصوير الحيـاة بقصـصه الحـي، ويـرى أن قـصته:

"الحرب والسلم" ربما كانت أعظم مثالٍ فردي للفن القصصي. فهـذا العبقـري العظيم الذي رثاه أشهرُ شاعريْن مصريّين في وقتهما، وكانت لوفاتِه رنّـة حـزن بالغ في العالم العربي وفي مصر بـصفة خاصـة، لا تحتـاجُ تـصانيفه الخالـدة إلى تعريفٍ أو تقريظ.

لـ "تولستوي" تآليفُ جمّـة منوّعـةٌ مـا بـين قـصصٍ وأقاصـيص ومؤلّفـات فلسفية دينيـة، ودراسـات فنيـة واجتماعيـة، وغـير ذلـك، فمجموعهـا يؤلـف مكتبة قيّمة جديرة بالتفرغ إلى نقلها إلى لغتنا، وقـصته "سـعادة الأسرة" مـن تآليفه الأولى التي كتبها وهو متأثّر بالمثل الأعلى الفني في تكوينِ الأدب، وقـد حبّرها قبل زواجه بثلاث سنوات، فهي ذات صبغة خاصّة تـستحقّ عنايتنـا في مصر، بل في العالم العـربي؛ لأنّهـا تتنـاول موضـوعًا يـشغل في الوقـت الحـاضر جميعَ الأذهان، وسيبقى شاغلًا لها إلى حدٍّ كبير.

وقد نقلَ "مختار الوكيل" هذه القصة عن ترجمة الأديب الإنجليـزي "ح. د. دف" المـشهودُ لـه ببراعتـه في الترجمـة، وبتفهّمـه الـدقيق لمرامـي "تولـستوي"، وحسبنا شهادة على ذلك ما كتبَه "إيلمر مـود" (مؤلـف "حيـاة تولـستوي") مـن تقريظ لترجمة "دف" الدقيقة للأدب الروسي.

وخلقت القصة عقيدة رجلٍ عبقري تنقّل ما بين الرذيلة والفضيلة، وكان له ضميرٌ حسّاس يؤنّبه أشد التأنيب، وقد انتهـى بـه المطـافُ إلى حبّ التجرّد والتـصوّف، ومـات شـبه مُسْتـشهد في سـبيل هـذا المبـدأ.

وهذه القصةُ جامعة ما بين الترجمة الشخصية والرغبة الفنيّـة إلى درجـةٍ مـا، وفيها تصويرٌ لأحلامه وأمانيه الزوجيـة، وقـد حقّقهـا فـيما بعـد بزواجـه مـن الأديبة الذكيّة البارعة الجمال "صـوفيا بهـرز" في سـنة ١٨٦٢ م، وقـد تطـوّرت أفكار "تولستوي" فيما بعد أن تطور وتطوّرت علاقاته بزوجته الحبيبة إلى حدّ الخصومة العنيفة.

وصار "تولستوي" مصوّر الحياة الدقيق، ثمّ انقلبَ إلى الفيلسوف الديني والمصلح الإنساني المتجرّد، وذهب شهيدَ هذه النزعة، ومع ذلك لا تـزال قـصة "سعادة الأسرة" مِن مفاتن أدبه المثـالي الأول في شـبابه، ولهـا جمالُهـا الخـاص الشائق.

نشأ "تولستوي" في أسرةٍ أرستقراطية، وحوله العبيدُ والجبروت، ولكنّـه في الوقت ذاته ترعرعَ في رعاية دينية مغاليـة، كفلتْهـا لـه عمّتـه الحنـون طيّبـة القلب وحاشيتها، فكان لـذلك أثـرٌ عميـق في نفـسه بـدأ بـردّ فعـل تجـلّى في إباحيّة "تولستوي" في صباه إلى حدّ بعيد إباحيّـة جنـسية وفكريـة حتـى أنّـه كان يناصرُ النهلزم والإلحاد! ثمّ في التّهالك على الشهوات تهالكًـا أقعـدَه عـلى النجاح في جامعته، وبلغَ به الفشل وسوءُ الحال إلى التفكير تكرارًا في الانتحار، وقد فقد كلّ ثقة بنفسه، وكان يتأثر بـ "ترجنيف" وخاصّة بـ "ستندال" الـذي كان يبشّر بإيمان وبراعة ضدّ الحـزب، فحـذا حـذْوهما وكـانَ لـه مـن كتابـات "ستندال" خيرَ معلّم إنـساني، وعـلى الأخـص بعـد أن ذاقَ "تولـستوي" مـرارة

الحرب في القرب، وقد بلغ فيها مرتبة قائد، ولكنّه قائدٌ لا يؤمن بالحديد والنار.. فكان لـ "تولستوي" من هذا ما يبعثه إلى الانطباع بطابَع الحرية والرغبة المُلحّة في تحرير الأرقّاء، وكان بكتاباته رائدًا فكريًّا عظيمًا لـ "روسيا" المتحرّرة فيما بعد.

أمّا عن منازعات "تولستوي" (ومنها خصوماته على تافِه الأمور مع "ترجنيف")، وأمّا حبّه زمنًا للخصومات وللاستهتار إلى حدّ أن يصبحَ أبًا غير شرعي، وأمّا عنايته بإنشاء مدرسةٍ حرّة، وأمّا غرامُه بالآنسة "صوفيا بهرز" وتشبّثه بزواجه منها؛ فتفاصيلُها ومغازيها مدوّنة في ترجمات حياته، ويكفي أن نشير هنا إلى أن حياته الزوجية السعيدة انقلبتْ إلى مأساة بعد أن استحالت رغباته الشهوانيّة أو طاقته الحيويّة إلى لون قوي من التقشف، وأخذ ضميرَه يعذّبه ويلح عليه بأن يصبح مسيحيًّا متجرّدًا وهو في الوقت ذاته لا يشاطر زوجتَه ذرةً من متاعبها ومسئولياتها الزوجية كما أثبتت هي في مذكراتها الجديرة بأن تطالع إلى جانب مذكراته الخاصة تمحيصًا لحقيقة نوازعه وحياته الروحيّة والبيتية، وتقدير مبلغ شذوذِه وحكمته، ودرجة إنسانيته وقسوته، وصلة كلّ ذلك بتكييف عبقريته.

لقد مات "تولستوي" شبه طريدٍ كالقديس التائب الشهيد، وترك لنا - بين ما ترك - قصّتين تمثل إحداهُما أحلامَه في الحياة الزوجية وخواطره في سعادتها وهي هذه القصة، والأخرى تصوّر تأثراته فيما

بعد، وهي قصة: "أنَّا كارنينـا" الـشهيرة، ولعلّنـا نحظـى مـن الأديـب المـترجم البارع، ومن الناشر الأديب الغيور بنقلها قريبًا إلى العربية، وأن تتبَعها ترجمة سيرة "تولستوي"، ثمّ بقية مؤلفاته، ليعرف أبناءُ العربية ما يجـب أن يعرفـوه عن هذه الشخصية الأدبيـة الفـذّة التـي مـلأت الأسـماع والأذهـان في القـرن الماضي، ولا يزال صداها القوي يكتسح الجيل بعد الجيل.

أحمد زكي أبو شادي

مقدمة

الطبعة الثانية

لا جدالَ في أن "تولستوي" هـو مـن جبـابرة الأدب الـذين اتّـصفوا بقـوة خارقـة في تـصوير الحيـاة والأحيـاء، ولقـد طبـع أدبـه الحـي بهـذه الـصوفية الرحيمة العذْبة التي تهتزّ لها القلوب، وتخفق الأرواح.

و لقدْ أحببته شأنَ أهل جيلي جميعًا، ودرسته دراسـةَ المحـبّ الـشَّغوف، ثمّ نقلت إلى العربية هـذه القـصة التـي تظهـر الآن في طبعتهـا الثانيـة بعـد أعوامٍ طوال منذ صدور طبعتها الأولى.

وأشهد أنّ مرور الأيام لم يغيّر رأيي في جمال القصة وجلالهـا، فهـي قـصة الأسرة والمجتمع والمشاكل العاطفية المتضاربة.

ولقد أدار "تولستوي" العبقري موضوعَها وحوادثها في روْعة لا نظـير لهـا، ولذلك فقد كُتب لها البقاء، كـما كتـب لأخواتهـا مـن القـصص الخالـد الـذي ابتدعته قلمُ الجبار "تولستوي".

ولا شك أنّ موضوع القصة الذي يستهوي النفوس بعلاجه لمشاكل الحياة الزوجية، هو من الموضـوعات الاجتماعيـة الحيويّـة التـي نواجههـا في حياتنـا اليومية.

وإنه لطيّبٌ لي بمناسبة الاحتفال بمرور مائة وخمسين عامًا على مولد هذا الكاتب الفيلسوف العالمي - فقد ولد في عـام ١٨٢٨ ومـات عـام ١٩١٠ - أنْ أقدّم هذه الترجمـة الأمينـة لقـصته الاجتماعيـة الممتـازة التـي أبـدعها قلمُـه العبقري العطوف على إخوانه البسر في كلّ مكان وزمان.

ورجائي أن تكون تحيّة مخلصة متواضعة للكاتب الكبـير وللبـشرية التـي أحبّها، وتفانى في حبّها، ومات وهو يدافع عنها في أشرف الميادين.

ودعائي إلى الـلـه أن يجدَ القارئ العربي في مطالعتها زادًا وأملًا ومرشدًا.

والـلـه ولي التوفيق.

الدكتور /مختار الوكيل

القاهرة

منشية البكري في يونيو سنة ١٩٧٨م

الجزءُ الأوّل

الفصلُ الأوّل[1](*)

لقد كنّا في حداد على والدتي التي ماتت في الخريف، وأمضيت طيلةَ الشتاء معزولةً في الريف مع "كاتيا" و"سونيا".

كانت "كاتيا" صديقةً قديمة للأسرة، اهتمت بنا كثيرًا حتى ترعرعنا وكبرنا بين يديها، ولقد كنت أحبّها منذ حداثتي، أمّا "سونيا" فهي شقيقتي الصغيرة، وكان شتاءً مظلمًا متجهّمًا حزينًا ذلك الذي قضيناه في بيتنا العتيق في "بولروفسكو". كان الطقس باردًا، كثيرَ الرياح والزعازع، حتى أنّ الصقيع كان يعلو النوافذ ويعتمُ الحجرات بتراكمِه على الزجاج، وقلّما ارتضْنا أو تركنا البيت في فصل الشتاء، كان زوّارنا قلائل، وهؤلاء لم يضيفوا إلى البيت فيضًا من الانشراح والسعادة، كلّهم يحملون وجوهًا كئيبة، ويتكلّمون في صوتٍ خفيض، كما لو كانوا يحذرون من تعكير النوم على شخصٍ ما، ولم يكنْ من شأنهم أن يضحكوا أبدًا، بل كانوا يزفرون ويذرفون الدموع غالبًا كلّما وقع نظرُهم عليَّ، أو بالأخص على "سونيا" الصغيرة في معطفها الأسود. كان شبحُ الموت يحلّق فوق سماء البيت، وكان الهواء لا

[1](*) تتولّى سردَ هذه القصة "ماشا" بطلتها.

يزال مشبّعًا بالأسى والرعب والموت، وبقيت غرفة أمي مغلقـة، وكلّـما مـررت بها في طريقي إلى مخْدعي، أحسستُ بدافع غريـب ملـحٍّ يـدفعني إلى النظـر في هذه الغرفة الباردة الخالية.

كنت - حينئذٍ - في السابعة عشرة، وفي نفس العام الذي توفّيت فيه أمّي، كانت تنوي الانتقال بنا إلى "بيترسبرج"، كيما أندمجُ في المجتمعات، كان فقد أمي منبعَ أسى وحرقـة لي، ولكـن يجـب أن أعـترفَ بشعور آخر خلفَ هذا الأسى، فبالرغم من صغري

وجَمالي آنئذ (هكذا كان يخبرني كلّ مَن عرفتهم)، فقد كنـت أضـيع شتاءً آخر في الريف..! وقبل أن ينتهي الشتاء، كان شـعوري بالوحـدة قـد طغى على روحي حتى صرت أرفضُ مغادرة غرفتي، أو فـتح "البيـانو"، أو تناولَ كتاب، ولمّا عارضـتني "كاتيـا" طالبـة إليَّ ضرورةَ البحـث عـن عمـل أتسلّى به، قلت لها: إنّني لا أقدر على مزاولة أي عمل. ولكني كنت أقـول في أعماق قلبي: "ما الفائدة من ذلك العمل!؟ بل ما الفائدة من عمـل أي شيء على الإطـلاق، مـا دام الجـزء الأفـضل مـن عمـري يـضيع عـلى هـذا المنـوال..؟" وكانـت دمـوعي الحـارّة الدّفوقـة جـوابي الوحيـد عـلى هـذا السؤال!

ولقد قيل لي إنّ جـسمي أخـذَ في النّحـول، وأن نظـراتي أخـذتْ في الـبرود والسّهوم، وما كان ذلك ليحرّك مني ساكنًا، ماذا يهمّ؟

ولمن؟ لقد أحسستُ أنّ حياتي كلها قد قدّر لها الانزواء في هـذه الوحـدة القاتلة، التي لا قدرة لي، ولا رغبة؛ في الخلاص منها.

وعند انتهاء الـشتاء، كـان اهـتمام "كاتيـا" بي يـزداد ويعظـم، حتـى أنهـا صمّمت على أن تسافر بي بعيدًا عن الريف، ولكنّها كانت في حاجة إلى المـال، ونحن لا ندري كيف كنا نحصل على حاجياتنا الضروريّة منذ وفاة أمـي! لقـد كنا نتوقّع كلّ يوم حضورَ وصيّنا الذي سيُطلعنا عـلى حقيقـة موقفنـا، وأخـيرًا وصل في مارس.

قالت لي "كاتيا" ذات يوم، وأنـا أسـير في الحجـرة جيئـة وذهابًـا كالخيـال الشارد، خالية الفكر يائسة القلب، محطمة الوجدان:

- "حسنًا.. الحمد الـلـه، لقد وصل "سيرجي ميخاليس". وبعث يسأل عنا وهو يقصد بذلك الحضور لتنـاول الغـداء عنـدنا، يجـب أن تخفّفـي عنـك يـا عزيـزتي "ماشـا"، وإلّا فـماذا يحـسبك عنـدما يـراك! لقـد كـان مغرَمًـا بكـم جميعًا...!".

كان "سيرجي ميخاليس" جارنا الأقرب، وهو بالرغم من صغر سنه كان صديقًا لأبي، ولا نكـران أنّ حـضوره بـدَّل مجـرى حياتنـا، وسـهّل علينـا مهـاجرة الريـف، أضف إلى هذا أنني نشأت ملحوظةً بعين رعايتـه وحبّـه، ولمّـا طلبـت إليَّ "كاتيـا" أن أخفّف عن نفسي، وأبدي الـسرور وأتكلّـف الرضـا والانـشراح؛ كانـت تـدري - تمامًا - أنّه يـؤلمني أن أصـطنع الرّضـا أمامـه هـو عـلى الخـصوص. ولقـد أحببتـه

من قديم، شأني في ذلك شأن "كاتيا" و"سونيا" الساذجة، وجميع مَن بالدار حتى مدرّب الجياد، وهو مِن جانبه يضمرُ لي ودًّا خالصًا، ولا يزال يذكر كلمةً قالتها أمي ذات مرة في حضوره: "كم أتمنّى لو تتزوجين من رجل مثله!". كانت تلك الجملة تبدو نابيةً قلقة في ذلك الوقت؛ إذْ كان زوجي الذي أتخيّله - حينئذٍ - يختلف تمامًا عنه: كان يجبُ أن يكون نحيفًا، شاحبًا، حزينًا، بينما كان "سيرجي ميخاليس" متوسّط العمر، طويلًا، وكان على الدوام كثير المرح..! ولكن جُملة أمي مازالت ترنّ في أذني، بل وكنت قبل ذلك العهد بستّ سنين، وأنا لم أتجاوز الحادية عشرة، حينما ألعب معه؛ أسمعه يناديني باسْمي المحبوب "بنفسَجة"! وكثيرًا ما كنت أسائل نفسي في ذلك العهد خائفة حذرة: "ماذا عساي أن أصنع، لو فاجأني بطلبه الزواج مني؟!".

ووصل "سيرجي ميخاليس" قُبيل موعد الغداء، الذي أضافت "كاتيا" إليه كثيرًا من الحلوى، وبصرت به من النافذة يقتربُ من المنزل في زحّافته الصغيرة، وحينما دنا من الباب أسرعت إلى حجرة الاستقبال قصدَ الادّعاء أنّ زيارته لنا كانت مفاجأة مدهشة. بيدَ أني حينما سمعتُ وقعَ أقدامه وصوته القوي وخطوات "كاتيا" تسير إلى جانبه في الردهة؛ فقدتُ صبري وتقدّمت أنا للقائه، كان ممسكًا بيد "كاتيا"، ويتكلّم في صوت مرتفع، ويبتسم.. فلمّا وقع بصرُه عليَّ وقفَ وأخذ يقلّب النظر فيَّ برهة، دون أن ينحني، فشعرتُ بقلق وخجلٍ عظيمين، وقال في صراحته وقد تقدّم نحوي فاتحًا ذراعيه:

- أحقًّا هذه أنتِ؟ أيمكن أن يحدث كلّ هذا التغيير!؟ لقد أصبحت شابّة فتّانة، اعتدت أن أدعوك فيما مضى "بنفسّجة"، أمّا الآن فأنتِ "وردة".. وردة في تمام جَمالها!".

ثمّ تناول يدي في يدِه الكبيرة، وضغطها بشدّة حتى كدت أتألم، ولمّا كنت أتوقع أنه سيقبّل يدي؛ انحنيت قليلًا، ولكنّه ضغط كفي مرةً أخرى، ونظرَ نظرة قويّة في عيني، وثباتُه وابتهاجه القديمان يتجلّيان في وجهه.

مضتْ ستة أعوامٍ على آخر مرّة رأيته فيها، ولقد تغيّر الآن كثيرًا، كبر وتبدلّت ملامحه، بيدَ أنّه ما زال على أخلاقه السابقة، وما زال له الوجهُ الواضح المشرق، والعينان المتلألئتان المتوقّدتان، والابتسامة الطيبة البريئة. وبعد لحظاتٍ قليلةٍ من حضوره، لم يعد ضيفًا علينا، بل صار صديقَنا جميعًا، حتى الخدم الذين أظهروا سرورَهم، وحبّهم له، بتحمسهم وتفانيهم في أداء أيّة خدمة له.

لقد ظهر بما يخالف مظهرَ الجيران الذين اعتادوا زيارتنا عقب وفاة أمي، كانوا يحسبون مِن واجبهم الصمتَ حينما يجلسون إلينا، أو تذريف الدموع السّخينة.. أمّا هو، فكان على النقيض، مغتبطًا، كثيرَ الكلام، ولم يشرْ إلى والدتي بكلمة واحدة، حتى أنّ هذا التناقض أدهشني لأوّل وهلة، بل عددتُه غير لائق من صديقٍ حميم مثله، ولكنّي فهمت أخيراً، أنّ الذي حسبته تناقضًا كان إخلاصًا،

وأحسست بروحي تشكره على ذلك.

وفي المساء، صبّت "كاتيا" الشاي وهي جالسة في مكانها العتيق في حجرة الاستقبال، حيث اعتادت الجلوس في حياة والدتي، وجلست أنا و"سونيا" على مقرُبة منه، وعثرَ ساقينا القديم "جريجوري" على غليون لأبي، فأعطاه لـ "سيرجي" الذي شرع يجول في الحجرة جيئة وذهابًا كما كان يفعل في الأيام الخالية، ثمّ قال وقد توقّف عن المشي:

- كمْ من تغيّرات مريعة تمّت في هذا المنزل، حينما يفكر المرء فيها جميعًا!.

فقالت "كاتيا" زافرة:

- أجل، حقيقة..

ثمّ نظر نحوي، وقال:

- أظنّكِ تذكرين والدكِ؟

- لا أكاد أذكره.

فأضاف في صوتٍ خفيض ناظرًا إلى جبهتي:

- كمْ كنتم تعيشون في سعادة لو كان معكم الآن! لقد كنت مولَعًا به إلى درجة بعيدة.

لاحظت أنّ عينيه تبرقان أكثرَ من العادة، ثمّ قالت "كاتيا":

- وقد قبضها اللـه هي الأخرى!

ثمّ أخرجت منديلها، وشرعت تولولُ وتبكي.. فكرّر قوله مُشيحًا بوجهه:

- نعم، التغيّرات في هذا البيت فظيعة.

ثمّ أردف بعد قليل:

- أريني لعبك يا "سونيا"؟

ثمّ خرج من الغرفة وتوجّه إلى الرّدهة، ولمّا اختفى عنّا نظرت "كاتيا" نحوي، وقالت وعيناها ممتلئتان بالدموع:

- أي صديق ودود هو!

وبالرغم من أنه لم يكنْ قريبًا لنا، فقد لمست في عطفِ هذا الرجل الطيّب عزاءً صادقًا.

سمعته يتحرّك في الرّدهة مع "سونيا"، وبلغتْ أذنيَّ أصداء صوتها الساذج البريء وهي تبادله الحديث، وبعثت له الشاي هناك، ثمّ سمعته بعد برهة يجلس إلى "البيانو"، ويضرب مفاتيحه بأنامل "سونيا" اللّدنة، ثمّ ناداني قائلًا:

- "ماريا أليكسا ندروفنا"، تعالَي أسمِعِينا شيئًا.

لقد أعجبتني معاملتُه الودودة، ولهجتُه الصدوقة في توجيهه الأمر إليَّ، فنهضت لفوري وتوجّهت إليه.

فتح كتابًا من كُتب "بتهوفن" الموسيقية، وأشارَ إلى أغنية "ضوء القمر" وقال:

- وقعي هذه القطعة.

ثمّ أضاف إلى ذلك قوله:

- دعيني أرى كيف تعزفينها!

ثمّ ذهب إلى ركنٍ من أركان القاعة وفي يده فنجانه.

رأيت من المستحيل أنْ أعصي له أمرًا أو أرفض طلبًا، أو أحتجّ قبل البدء في العزف بأنني لا أجيده؛ فجلست إلى "البيانو" في أدب وخشوع، وشرعت أعزف كأحسن ما في وسعي، بيدَ أنّني كنت أخشى النّقد، وخصوصًا منه هو الذي يهوى الموسيقي ويفهمُها، كانت تلك الأغنية تمثّل أيامنا الخالية التي أثارت ذكراها مناقشتُنا وقت الشاي، وأستطيع أنْ أقرّر أنني أجدت عزفها، إلّا أنه لم يدعْني أوقّع قطعة سواها، بل قال لي على الفور:

- كلا، لا تستمري، هذا اللّحن لا بأس به، يبدو لي أنّك فنانة!

أعجبني منه هذا المديح المعتدل، حتى أنني غالبًا ما كنت أردّده.

أجل، سرّني أن أرى واحدًا من أصدقاء والدي، لا يعاملني كطفلة ولكنْ يتكلم إليَّ في رقّة وعذوبة وصفاء. ذهبت "كاتيا" إلى الطابق العلوي لتضع "سونيا" في فراشها، وانفردْنا - أنا وهو - في الرّدهة.

تحدّث إليَّ عـن أبي، وقـصّ عـليَّ مبـدأ صـداقهما، والأيـامَ الـسعيدة التـي قضياها سويًّا، حينما كنت لا أزالُ طفلة أهتمُّ باللعـب وكُتُـب الهجـاء! ولقـد جعلني حديثه عن أبي أفكّـرُ فيـه تفكـيراً جديـدًا، أجـل.. أصـبحت أراه رجـلًا ريّضَ الأخلاق سلسَ الطباع، وسألني بعد ذلك عن الأشـياء التـي أميـل إليهـا، عن قراءتي، عن الأعمال التي أميل إلى مزاولتها، ولم يبطئْ عن التقدّم بالنـصح الخاص لي.

لقـد تـلاشى الرجـلُ الـذي اعتـاد أن يلهـو ويـصنع اللّعـب ويلقـي المِلَـح والنّوادر على مسمعي، في حين كنت أرى أمـامي رجـلًا بـادي الرزانـة والجـدّ، سهلًا، وصديقًا حبيبًا، لم يكنْ في طاقتي أن أخفي عنه احترامي وحبّي، بل كان من دواعي سروري أن أتحدّث إليه حديثًا لا يخلو من الرّهبة والخوف!.

وعادت إلينا "كاتيا" بعد أنْ وضعت "سونيا" في فراشها، واشتركت معنا في الحديث، شكتْ إليه جمودي وخمولي، فلمْ ألفظْ ببنت شفَة، ولكنه نظرَ إليَّ، وقال باسمًا:

- إنّها لم تقلْ لي شيئًا عن أهمّ أمورها..

فأجبت:

- ولماذا أخبرك؟ مِن المؤلم أن أتكلّم عن ذلك، وسوف ينتهي كلّ شيء!

ولقد كنت أشعرُ حقيقة في ذلك الوقت، أنّ الخمول الذي استحوذ على روحي قد انتهى، أو كأنّه لم يكن له وجود من قبل.

قال:

- أتظنّين أنه لا يمكنك التغلّب على هذه الوحدة لأنك فتاة صغيرة؟

فأجبته ضاحكة:

- طبعًا، أنا فتاة صغيرة!

- مرحى، إنني لا أحترمُ الفتاة الصغيرة التي تعيش فقط بمديح الناس، ولكنّني أحترم تلك التي في مقدورها أن تعيش حينما تُنبذُ وتُترَكُ وشأنها، أمّا تلك التي تتخاذل وتتحطّم ولا تجدُ ما يوافق مزاجها، فهي تضيِّع حياتها عبثًا، وليس في نفسها عناصر قوية يمكن الاعتماد عليها..!

- رأيك فيَّ غير صريح..!

قلتُ له هذا فقط لكيلا يُقال إنّني سكتُّ ولم أحر جوابًا، فصمَتَ برهة، ثمّ قال:

- إنّ مشابهتك لوالدك كبيرة، ففي روحك شيء منه..

وعادت نظرتُه اليقظة الرحيمة تغريني، وتطنبُ في الثناء عليَّ، حتى جعلتني أستشعر الراحة والطمأنينة.

ولاحظتُ - لأوّل مرة - أنّ وجهه، الذي لمست فيه بادئ الأمر ملامحَ النفوس الكبيرة، له كذلك تعبيرٌ خاص به - مشرق، ثمّ مُتيقظ إلى درجة بعيدة، ثمّ حزين أسيف، قال:

- يجبُ أن تسعَى إلى شغل نفسك بأي عمل، ولا يليقُ بكِ أن تنتظري مَن يوجّهك ويرشدك، أمامك الموسيقى التي تغرمين بها، والكتب والاطلاع، إنّ حياتك كلّها مطروحةٌ أمامك، فيجبُ أن تحتشدي لها وتستعدّي من الآن، وإلّا فقدتيها وحطّمتِ آمالكِ إلى الأبد، ولعلكِ إذا تأخّرتِ عامًا بعد هذا فقد لا تنجحين..!

تحدثَ إليَّ كما لو كان والدي أو خالي، متبسّطًا، محاولًا - جهدَ الطاقة - أنْ يتخطى الفروقَ الكثيرة التي تنهض فيما بيننا.

وأمضى بقية المساء يتحدّث إلى "كاتيا" عن العمل، وأخيرًا وقف وتقدّم مني، ثمّ أمسك يدي وهو يقول:

- أسعدتما مساءً يا عزيزي.

فسألته "كاتيا":

- متى نراك ثانية؟

فأجابها وهو ما يزال يقبضُ على يدي:

- في الربيع، وسأتوجّه الآن إلى "دانيلوفكا" (وكانت هذه من ممتلكاتنا) وسأنظر الأمور هناك، وسأمضي التدابير التي رسمتها، ثمّ أرحل إلى "موسكو" في مهمّة تخصني، وفي الربيع سنتقابل ثانية بإذن الله.

فسألته:

- هل يجبُ أن تغيب حقيقةً هذا الزمن الطويل؟

... لقد كنت أشعر بحزن عميق، إذ كانت أمنيتي الوحيدة أن أراه كلّ يوم، أحسستُ بهزّة ألمٍ فجائية، وخفتُ أن يعاودني يأسي القديم الذي خِلته ولّى وأدبر، أمّا وجهي وصوتي فقد أظهرا بوضوح ما اشتملت عليه جوانحي من لوْعة وحيْرة..

قال في نغمة حسبتها باردة:

- يجب أن تبحثي عن شيء يسلّيك حتى لا يطغى عليكِ اليأس. ثمّ ترك يدي دون أن ينظر نحوي، وخرجَ إلى الرّدهة حيث لبس معطفه الفرائي، وهو لا يزال يتجنّب النظر إليّ، قلت في نفسي: "إنه يرهق نفسه كثيرًا دونَ مبرر! عرفَ أنني أهتمّ به فحوَّل نظراته عني! إنه رجلٌ طيّب، طيب جدًّا، ولكن.. هذا فقط هو كلّ ما هنالك!

وبعد مغادرته المنزل، بقيت مع "كاتيا" ذلك المساء نتحدّث إلى ساعة متأخرة عن نظام حياتنا في الصيف المقبل، وذهبنا نفكّر أين سنمضي الشتاء القادم، وماذا يجب أن نصنع حينئذٍ؟! وأمسكت أنا عن إلقاء هذا السؤال (ما جدوى هذا كلّه؟) لقد صار الأمرُ واضحًا جدًّا.

فالغرضُ الأساسي من الحياة هو السعادة، ولقد جعلتها في رأس قائمة أحلامي، وبدا لي أنّ منزلنا القديم المظلم قد أصبح فجأة مملوءًا بالحياة والنشاط مغْمورًا بالأشعة المتلألئة.

الفصلُ الثاني

... وسرعان ما وافى الرّبيع، وحلَّ محلَ يأسي وخمولي قلقٌ قذفني به هـذا الفصلُ العجيب، مغمورًا بـالأحلام والأمـاني الغامـضة، والرّغائـب التـي يعجـز المرءُ عن تحديدها، لم أعدْ بعدُ أعيش عيشة الخمول والرّكـود التـي ألفتُهـا في الشتاء، ولكنْ أخذت أقرأ، وأعزف على "البيانو"، وأعطي دروسًا، بل وغالبًا مـا كنت أهبطُ الحديقة جائسةً خلالها ساعة طويلـة، أو جالـسة في مقعـدٍ مـن مقاعدها، والـلـه يعلم كيف كانت أفكـاري ورغـائبي وأحلامـي في مثـل تلـك اللحظات!

وكنت أعتمدُ إلى نافذة مخدعي في بعض الأماسي التي يزيّنها القمر حتى يطلع الفجر، وفي بعـض الأحـايين - و"كاتيـا" غارقـة في بحـار النـوم - كنـتُ أخرج خفيفة القدم إلى الحديقة في ثياب النوم، أظفر فوقَ النّدى حتـى أبلـغ البحيْرة، وذهبت - ذات مرة - إلى الحقول وجُلْتُ حول الحديقـة وحـدي في الدجنة.

لا أستطيع استعادةَ الأحـلام التـي كانـت تعمـرُ مخيلتـي في تلـك الأيـام، وحتـى حيـنما أقـدر عـلى اسـتعادتها، لا أكـادُ أصـدّق أنّهـا أحلامـي لغرابتهـا وبعدِها عن وقائع الحياة..

لقد صدقَ وعد "سيرجي ميخاليس": آبَ من سفره في نهاية مـايو، كانـت زيارتُه الأولى في المساء، ولذلك لم أستطعْ رؤيته عـلى حقيقتـه، كنّـا جلوسًـا في الرّدهة نجهز الشاي والحديقة من حولنا خضراء مورقةٌ كلها، والبراعم البيضاء قد انبعثت من أطراف أغصان الشجيرات النّضرة، دَلالة على أنّ زهورها تهتـزّ لتتفتح، وكانت أزهار الحديقة وزهورُهـا شـفافةً في أشـعة الـشمس الجانحـة للغروب، هذا الظلالُ والهدوء المستتبّ يملآن الـشرفة، وثقـل النّـدى الخـضرة بلالئه.. ثمّ.. النهار.. يلفظ الـنفس الأخـير فـيما وراء الحديقـة، وثغـاءُ الأغنـام والماشية يتعالى وهي في طريقها إلى حظائرها في المساء، وكان "نيكون" الغـلام الأبله يسحب عربةَ الماء في الطريق الممتدّ أمام الشرفة، أمّا نحن فقد أعـددنا "البسكويت" و"المربّى" والقشدَة على المائدة، هذا و"كاتيا" منهمكـةٌ في غـسل الفناجين في نشاط وخفّة.

وطغى عليَّ الجوع إذ كنت قـد اسـتحممْت فلـم أطـقْ الاصـطياد حتـى يُجهَّز الشاي، فرحْتُ ألتهمُ لقمًا كبيرة مغموسة بالقشدَة، كان شعري لا يـزال مبتلًّا، وقد وضعت فوقَـه مِنـشفة كبـيرة، بـصرت بـه "كاتيـا" قبـل أن يـدخلَ فصاحت:

- أنت أخيراً؟! "سيرجي ميخاليس". لقد كنا نتحدّث عنك منذ لحظة.

فنهضت لتوّي قاصدة التوجّـه لتبـديل ثيـابي، ولكنـه أمـسك بيـدي لـدى الباب وقال، وهو ينظرُ باسمًا إلى المِنشفة التي وضعتها فوق رأسي:

- ماذا يدعوكِ إلى تبديل الثياب؟ إنك لم تكوني لتفكّري في هذا لو كان "جريجوري" ساقيكم هو الذي دخل الآن عليكما، إنني في الواقع لا أختلف عن "جريجوري".

... بيدَ أنّني لاحظت أنه ينظر إليَّ بطريقة لا يمكن أن أتوهّمها في "جريجوري"، ولذا لمْ أقتنعْ بصدق تمثيلِه، وقلت وأنا أغادرهما:

- لن أغيبَ طويلًا.

فصاح في أثري:

- ولكنْ أي خطأ هناك؟ إن هو إلّا رداء سيدة ريفية صغيرة..!

... قلتُ لنفسي وأنا أبدّل ثيابي في الطابق العلوي: "كم يبدي إعجابه بي!" ولكني جدّ مسرورة بأَوْبَته لأنّه سيسكب في دمائنا الحياة!

نظرت في المرآة نظرةً عابرة، ثمّ جريت طَروبًا إلى الشرفة وتنفسي يسرعُ ويسرع حتى عجزتُ عن إخفاء وجْدي. كان جالسًا إلى المائدة يتحدّث إلى "كاتيا" عن شئوننا، فلمّا دخلت عليهما نظرَ إليَّ وابتسم، ثمّ مضى في حديثه، وفهمتُ من كلامه أنّ أمورنا قد انتظمت، حتى أنّه كان في إمكاننا بعد تمضية الصيف في الريف، أن نذهب إمّا إلى "بيترسبرج" حيث تثقف "سونيا" في المدارس، وإمّا السفر إلى الخارج. قالت "كاتيا":

- لو كنتَ تصحبنا إلى الخارج..! إننا بدونِك نعجز عن ذلك.

فأجاب ما بين ساخرٍ وجادّ.

- آه.. أتمنّى لو أطوف معكم ببقاع الأرض جميعها.

قلت:

- حسنًا، إذًا.. هيا نبدأ ذلك المطاف.

فابتسم وهزّ رأسه، ثمّ قال:

- وأمـي؟ وأعـمالي؟ ولكـن هـذا لـيس موضـوع تـساؤلنا الآن، أحـبّ أن أعـرف أولًا، كيـف كنـتِ تقـضين أوقاتـك؟ آمـلُ ألّا تكـوني قـضيتِها في يأسـكِ القديم؟

وحينما أخبرتُه أنني كنت غيرَ مهمومة في غيابـه، أشـغل نفـسي بمختلـف الأمور، وصدَّقت "كاتيا" على كلامي كله، راح يمتدحني ويطربني كما لـو كـان من حقّه أن يفعل ذلك. كانت نظراته وكلماته رحيمةً، كـما لـو كـان يوجّههـا إلى طفل. ولقد أحسستُ أنّي مضطرة إلى الاعتراف لـه - في إسـهابٍ وصراحـة عظيمة - بكلّ حالاتي النفسية، كما لو كنت في الكنيـسة. وكـان مـساءً رقيقًـا حتى أنّنا بقينا في الشرفة بعد تناول الشاي، ولقد لـذَّ لي الحـديث فلـم أشـعرْ بمـضي الوقـت، وانقطـاع جلبـة الخـدم في الـداخل، وقويـتْ رائحـةُ الزهـور، وفاحت من كلّ ناحية، وترصّع الحشيش بالندى، وراح بلبلٌ يغرّد عـلى غـصن شجيرة قريبة، ثمّ صمتَ لدى سماعه أصواتنا، وبدتْ السّماء الصافية كـما لـو كانت تريدُ أن تنطبق على رءوسنا.

و ازدادَ الجوّ ظلامًا، بيدَ أني لم ألاحظْ ذلك إلى أن طار خفاش على حين غرّة من تحت الشرفة، ثمّ أخذ يرتفع ويدور حول وشاحي، فاستندتُ إلى الحائط وكدت أصيح، ولكنّ الخفاش توارى في لمح البصر..

قال مغيّرًا الحديث:

- كم أغرمُ بمكانكم هذا! لشدّ ما أتمنّى لو تمكّنت من تمضية حياتي هنا، جالسًا في هذه الشرفة!

قالت "كاتيا":

- حسنًا، علام التردّد في التنفيذ؟!

فقال:

- هذا جميل كلّه، ولكنّ الحياة لن تبقى ساكنة!

فسألته "كاتيا":

- لماذا لا تتزوّج؟ إنّك تكون زوجًا كاملًا لو فعلت.

فقال ضاحكًا:

- .. لأنّني أحبّ أن أبقى كما أنا!. كلا يا "كاتيرينا كارلوفنا" لقد تأخّر كلانا عن موعد الزواج، ولم يعد أحدٌ يفكّر فيَّ كرجل يصلح لذلك، وأنا متأكّد من هذا الأمر، وأعلن أني مرتاحُ البال منذ أقنعت نفسي بصحّة ذلك!

بدا لي أنّه يقول تلك الكلمات في طريقة مغالطةٍ وخداع!

قالت "كاتيا":

- هذا هُراء! رجلٌ في السادسة والثلاثين من عمره يحسب أنه صارَ عجوزًا فلا يصح له أن يتزوج!

فراح يقول:

- أجل. أصبحت عجوزًا جدًّا.. هذه هي الحقيقة، وكلّ ما أصبو إليه اليوم هو أن أقبعَ في موضعي دون حراك، وهذا لا يليق مطلقًا برجلٍ يُقبل على الزواج.

ثمّ أشار نحوي وهو مازال يوجّه إليها خطابه:

- اسأليها.. يجب أن يتزوّج أهلُ جيلها، ونقف - أنا وأنتِ - لنهنّئهم على سعادتهم.

ولم يخفَ عليَّ النغمُ الحزين الذي سكب في عباراته، وصمتَ قليلًا فلم نحاول أنا و"كاتيا" الحديث، فتابع كلامَه منحيًا إليَّ كرسيه:

- حسنًا، لنفرض أنّني لسوء الحظ تزوّجت بفتاة في السابعة عشرة، "ماشا" مثلًا، أقصد "ماريا أليكساندرفنا"، فرصة الحديث جميلة، وأنا سعيد لسُنوحها..!

ضحكتُ ولم أدرِ لِمَ كان مبتهجًا، وماذا طرأ على مشاعره فغيّرها، وقال ناظرًا إليَّ:

أخبريني في أمانة وصدق، ويدُك على قلبك.. ألـيسَ مـن الغُـبن والتّعاسـة لكِ أن تتّحدي طيلة عمرك برجـلٍ عجـوزٍ محطّـم مـثلي، لا يرجـو مـن الـدنيا سوى أن يقبع في مكانه ساكنًا متهدّمًا في حين لا يعلم سوى اللـه أيةُ رغائـبٍ عزيزةٍ وأمانٍ غاليةٍ تعمرُ قلبكِ الفتي؟

... أحسستُ بـضيق، وهـبط عـليَّ صـمتٌ مجـنح، ولم أدرِ كيـف أجيـب، ولكنه قال ضاحكًا:

- لستُ خاطبكِ إليَّ، ولكني أسألك فقط هل أنا الزوج الذي تحلمين بـه، وأنت تسيرين وحيدة في الحديقة عند الغروب؟ يكون مِن نكَدِ الحظّ، ألـيس كذلك!؟

فابتدرتُه قائلة:

- كلا، هذا لا يكون من نكدِ الطّالع.. ولكن.

فأتمّ جُملتي قائلًا:

- ولكنّه شيء مستهجَن..

فقلت:

- ربّما، ولكن قد أكونُ مخطئة..

فقاطعني ثانيًا موجّهًا خطابه إلى "كاتيا":

- هأنتِ تَرَيْنَ! إنّها صادقة، وأنا شاكرٌ لها صراحتَها، ومـسرورٌ جـدًّا لهـذا النّقاش، ويجب عليَّ في هذه الحال أن أصرّح كذلك أن مثلَ هذا الزواج يكون من نكدِ طالعي كذلك.

فقالت "كاتيا" وهي تغادر الشرفةَ لتأمر بإعدادِ العشاء:

- كم أنتَ غريب! إنّك لم تتغيّر في كثير أو قليل..

وجلسنا صامتين، والسكون يلفّ كلّ ما حولنا، اللهم إلّا شيء واحد. أجل، إنّ البلبل الذي غنّى في الليلة المنصرمَة شرعَ يصبّ أغانيه الذهبية فغمرَ الحديقة بألحانه الرائعة البارعة، وسرعان ما جاوبه آخرُ مِن غصن دوحةٍ نائية، وكان لم يشرعْ بعد في أغانيه حتى تلك الليلة، فصمت الغرّيد القريب برهة، ثمّ عاد إلى تهْويمه وتغريده في نغمةٍ أعلى من الأولى، صابًّا فؤاده في أنّات طويلة، لقد كان في صوتِ الطائرين عذوبةٌ وحنان، وهُما يسبحان في مملكة الليل التي هي من توابع الطير وليست من توابع الإنسان، وسار الجنان إلى عشّه في الحديقة متثاقلًا، وأخذ وقع أقدامه يخفتُ رويدًا رويدًا على الممرّ، وسُمِعَ صفير من سفحِ التّل، ثمّ سرعان ما شملَ الكونَ السكون.

الآن فقط يمكن الإصغاءُ إلى حفيف أوراق الأشجار، وهبّت في الجو رائحةٌ سحريّة غمرت الشرفة، وأحسستُ بالسكون المتيقظ بعد الذي قيل، ولكن ماذا يمكنني أن أقول، هذا ما لم أعرفْه على التحديد، نظرت إليه والتفتتْ عيناه البرّاقتان نحوي ثمّ قال:

- كم تبدو الحياة جميلة!

فتنهّدت، ولم أدرِ لماذا.. فسألني:

- ماذا؟.

فأعدتُ بعده:

- الحياة جميلة.

وخيّم الصمتُ ثانية، وأحسست بقلقٍ يساورني، ولعلمي أنني جرحت شعورَه بموافقتي إيّاه على أنه عجوز، أحببتُ أن أسرّي عنه، ولكن لم أدرِ السبيلَ إلى ذلك؟

ثمّ قال ناهضًا:

- أجدني مضطرًّا لأن أقول لكما مساء الخير، لأنّ أمي تنتظرني لنتناول العشاء معًا.

فقلت له:

- لقد كنت أحبّ أن أسمِعَك الأغنية الجديدة.

فقال وقد لاحظتُ في صوته شيئًا من البرود:

- هذا يضطرني إلى الانتظار، فإلى وقتٍ آخر، مساء الخير.

أيقنتُ أنّني جرحته، ولقد شعرت بالأسفِ من أجل ذلك.

وصحبناه أنا و"كاتيا" إلى الباب، ووقفنا برهـةً في العراء شاخصتين إلى الطريق حيث اختفى.. وحينما انقطع بلوغُ وقع حوافر جوادِه آذاننا، سرتُ حول المنزل إلى الشرفة، وجلست أتطلّع إلى الحديقة،

وكنت لا أزال أسمع وأرى كلّ ما أحببتُ أن أسمعه وأراه، والـضبابُ المغمـور بالندى مفعمٌ بأصوات الليل.

زارنا مرةً ثانيـة، وثالثـة، وتـلاشى التـيقّظ الـذي بثّتـه مناقـشتنا الغريبـة، وحسبتُه راح إلى غير رجعة، وكان يزورنا طوالَ فصل الصيف مرتين أو ثلاثًـا في الأسبوع، ولقد ألفت الجلوسَ إليه، لدرجة أنـه إذا حـدث وتـأخّر عـن موعـد حضوره مرة؛ كنـت أغـضبُ منـه وأبـدي لـه اسـتيائي، وكنـت أظنّـه يعـاملني معاملة سيئة بإهْماله إياي. كان يعاملني كغلام يـألفُ صـحبته، يكـثر توجيـهَ الأسئلة إليَّ، ويطلب إليَّ الإفصاحَ عن جميـع خلجـاتي جهـدي.. ثـمّ يتقـدّم إليَّ بالنّصح والتشجيع، بل كان ينهرني ويغضبني في بعض الأحايين.

وقد كنتُ أفهم أنّه يختفي في منطقة من الألغاز، رغم المجهود المتواصـل الذي كان يبذله في سبيل الظهور معي في مستوى واحد، ولم يسمحْ لي بطـرقِ باب تلك المنطقة الملغّمة، ومن هذا كنت مُتحفّظة في علاقاتي به، علمت مـن "كاتيا" - كما علمت من بعض جيراننا - أنه لم يكنْ يعني فقط بأمّه، وبأمور ضيعته، وبمصالحنا؛ بل كان مسئولًا - إلى جانب ذلـك - عـن بعـض الأعـمال العامة، التي كانت منبعَ شـجنِه وألمـه.. ولكـن، كيـف كانـت نظرتُـه إلى كـلّ ذلك؟ وكيـف كانـت تـصميماته، ومـشاريعه، وآمالـه؟ هـذا مـا لم أقـدر عـلى استخلاصِه منه. كنت كلّما حاولت تغيير مجْرى الحديث إلى شـئونه الخاصـة؛

لاحظت تغيّر سِحنته، وكأنه يهمّ بنَهْري قائلًا: "أرجوكِ التوقّف! هذا ليس مـن شأنكِ"، ثمّ يغيّر موضوع الحديث. كنت أول الأمـرِ أتـألّم مـن هـذا التـصرّف، ولكـن سرعـان مـا ألفـتُ إدارة دفّـة الحـديث دائمًـا شـطرَ أمـوري الخاصـة، وأحسستُ بأنّ هذا كان من الأمور الطبيعية العادية.

وكان هناك أمرٌ آخر آلمني وأمضّني أول الأمر، ثمّ انتهى إلى أن صـار مِـن دواعي غبطتي وسروري، ذلك هو احتقارُه مظهري الذاتي، لم يشرْ في نظرة من نظراته ولا في حديث من أحاديثه، إلى جَمالي وشـبابي، بـل كـان عـلى النّقـيض من ذلك يحاول أن يسخرَ منـي حيـنما توجّـه إليَّ كلمـةُ إعجـاب في حـضوره، وكثيراً ما كـان يحـاول التّظـاهر باحْتقـارٍ شخـصي، واتّهـام عـواطفي ونظـراتي. وكانت "كاتيا" تلبسني في بعض الأيام ثيابًا أنيقة، وتصفّف لي شعري على نمطٍ خلّاب، ولكنّ أناقتي ما كانـت لتلقـى منـه سـوى لاذعِ الـسخرية، لقـد فهمـتْ "كاتيا" أنه مغرم بي، ولكنّها لم تفهم كيف يطمعُ الرجل في حبّ فتاة لا يريـدها على الظهور أمامه في كامل أناقتها، وسامي رشاقتها، ولكنّهـا سرعـان مـا فهمـت مقصدَه، لقـد تأكّـد أننـي لا أجـد الحـبّ الحقيقـي، وإنّمـا أنـا مولعَـة بنفـسي، متعلّقة بالثياب الجميلة، معتنِيَة بتصفيف شعري وترتيبِ حركاتي وسـكناتي، في حين أن المحبّة الحقّـة الطبيعيـة، هـي البـساطة في كـلّ شيء. لقـد عرفـتُ أنـه أحبّني حبًّا عظيمًا، ولكـنْ لم أسـألْ فـؤادي بعـد، هـل هـو أحبّنـي كطفلـة أم أحبّني كامرأة؟ أحسستُ أنّه يراني أفضل من كلّ حِسان الـدنيا، ولم أحتمـلْ أن

أخدعه عن نفسي، أجل، كنت أغشّه من حيث لا أقصد الغشّ، وكنتُ الرابحة من هذا الخداع، رأيتُ من الأفضل والأليقِ أنْ أطلعه على مَفاتن قلبي ومحاسن عقلي، لا على تقاسيم وجهي وجسدي، وكان من شأنه تجنّب الثناء على شعري ويدي ووجهي وكلامي، فعبثًا كنت أحاولُ خداعَه عن طريق مظهري الخارجي، ولكنّه لم يكن يدري عن عقلي وقلبي شيئًا؛ لأنّه أحبّهما، ولأنهما كانا في تقدّم مطَّرد. فمن هذه الوجهة كنت أقدر، وفعلًا حاولتُ خداعَه، كم كنت أحسّ في صحبته بالرّاحة والهدوء، ولقد أحسستُ بذلك ذات مرة في وضوح وجَلاء! اختفى خجلي وتلاشى فجأة، فسواء رآني من الأمام أمْ نظرني مِن الوراء، مصفّفة الشعر أو مهملتَه، فقد كنت على يقين أنّه يفهمني من الرأس حتى أخمص القدم، وتخيّلت أنه مُقتنع بي، مُستريح إليَّ، كما كنت مقتنعةً به ومستريحة بالجلوس إليه. وأحسستُ في قرارة نفسي أنه لو كان على غير عادته، كغيره من الناس، يتملّق محاسني ويمتدح جمالي وصَباحَة وجهي، لما كنت أغتبطُ بهذه المجاملة منه على الإطلاق. ولكن، كم كان قلبي يقطرُ سعادة وغِبطة عندما أتمَّ جُملة ما، وينظر إليَّ نظرة فاحصة حادّة، ثمّ يقول محاولًا إخفاء عاطفته المحتدمَة بقناعٍ من الجدّ:

- فيك جاذبية وجَمال! بل، أنتِ فتاة رشيقة، هذا ما يجبُ أن أصرّح به..!

ولأيّ الأسباب كنت أحظى منه بمثل هـذه التحيّـة الرقيقـة؟ ربّمـا لأننـي أخبرته أني سررتُ من "جريجوري" لأنّـه يحـب حفيدتـه حبًّـا جـمًّا، أو لأنّنـي قرأت بعضَ الأشعار، أو القصص فحرّك دموعي، أو لأنّنـي فـضّلت "مـوزارت" على "سكالهوف"، ولقد كان العجـب يتملّكنـي حيـنما أفكّـر في الأشـياء التـي أستحقّ من أجلها حبّه، كان لا يرضيه الكثيرُ من ميولي القديمة وكانـت نظـرةٌ منه أو هزّة من حاجبه، كفيلةً بشرح عواطفه حيالَ مـا كنـت أشرع في قولـه، سرعان ما أحسستُ أنّ مستوى تفكيري قد سما، كان حيـنما ينظـرُ في وجهـي ويسألني سؤالًا ما، يعرف كيف يستخرجُ الجواب من قـرارة نفـسي ويرشـدُني إليه، لم تكن خواطري وشعوري في ذلك الحين ملكًـا لي، وإنّمـا كانـت خـواطرُه وشعوره تلك التي مرّت بروحي، فأضـاءت لي الحيـاة. أصبحتُ أنظـر إلى كـلّ شيء نظرة جديدة - إلى "كاتيـا" والخـدم و"سـونيا" وإلى نفـسي وإلى كـلّ مـا أملك، فالكتب التي كنت أقرأها تزجية للفراغ صارت اليومَ من أهـمّ مـسرّات حياتي، ذلك لأنّه هو الذي ابتاع لي بعـضَها، فقرأنـاه وناقـشناه سـويًّا، وكانـت الدروس التي اعتدتُ إعطاءها لــ "سـونيا" عبئًـا ثقـيلًا عـلى صـدري، ولكنـي أحسستُ، منذ ابتدأ يحضر إبّان الدرس، أنني أقوم بعملٍ مُمتع، وأصبح مِـن دواعي غبطتي أنْ ألاحظَ تقدم "سونيا". وكنت أعتقدُ فيما مضى أنّه يـستحيل عـليَّ حفـظُ قطعـة موسـيقية بتمامهـا عـن ظهـر قلـب، ولكـنِ الآن، وهـو قــد يــسمعُها وربّمــا امتــدحها، صــار في مقــدوري أن أوالي عــزفَ نغمــة

واحـدة أربعـين مـرّة دونَ توقّـف، لدرجـة أن "كاتيـا" كانـت تحـصن أذنيهـا بسدادات قطنيّة، في حين كنت لا أمِلَّ تكرارها.

أمّا الأغاني القديمة، فإنني أعزفهـا الآن عزفًـا يختلـف جـدًّا عـن عـزفي السابق، لقد تطوّرت وتهذّبت وترقّقت. أجل، كلّ شيء تبدّل، حتى "كاتيا" التي أحببتُها محبتي لروحي، تغيّرت في عينيّ، والآن فقط قدرت تضحيتها بذاتها، وتوجّهت روحي بكليّتها شاكرةً لها تفانيها في خدمتنا، وازدادَ حبّي لها عن ذي قبل، وكان "سيرجي" هو الذي جعلني أغيّر نظرتي نحو الخدم، فقد عشتُ سبعةَ عشرَ ربيعًا بين هؤلاء القوم، ومع هذا فـما كنـتُ أعلـم عنهم إلّا مقدار ما أعلمه عن الغرباء الذين لم أشاهدْهم في حياتي، لم يدرْ بخَلدي مُطلقًا أنّ لهـم عـواطفهم ورغبـاتهم وآلامهـم مـثلي تمامًـا بـتمام، وتجدّدت حديقتنا في رأي عيني، وكـذلك تغـيّرت أحراشـنا وحقولنـا التـي ألفت رؤيتَها الطويلـة، لقـد أصـبحتْ أبهـى وأجمـل مـمّا كانـت. أصـاب "سيرجي" حينما قـال: "إنّ الـسعادة الحقـة الوحيـدة في هـذه الـدنيا إنمـا هـي في خدمـة الآخـرين"، لقـد صـعب علـيَّ فهـمُ هـذه الكلـمات بـادئ ذي بدء، ولكنني فهمتُها تدريجيًّا دون أن أشـغل بـالي أو أعمـل تفكـيري، لقد أطلعني على عالمٍ غريب من المباهج دونَ أن يغـير مـن نظـام حيـاتي شـيئًا، ودونَ أن يـضيف إليـه كـذلك شـيئًا الـلــهم إلّا روحـه وعواطفـه الدافقة..

كـلّ هـذه الـصور كانـت تحـيطُ بي منـذ الـصغر، ولكنهـا لم تخـرجْ عـن جمودها إلّا في هذه الأيام الأخيرة، بل وعادت إليهـا الحيـاة فجـأة، إن مجـرد نظرة منه تجعل كلّ شيء يحـاول الـتكلّم، كـما تجعـل قلبـي يـدقّ في نـشوة دقاتِ الانشراح والسعادة.

وكنــت كلّــما صـعدتُ في ليــالي الـصيف إلى الطـابق العلـوي كي آوي إلى مخدعي؛ أرى أشباحَ شقائي في الشتاء المنصرم تتـوارى وتختفـي مخلّفـة وراءهـا سعادةَ الحاضر المُلتهبة، وكثيراً ما كنت أقومُ من مخدعي في صميم الليل وأتوجّه إلى سرير "كاتيا" فأوقظها وأخبرها أنني سعيدة جدًّا، وعلمَ اللـه أنهـا لم تكـن في حاجة إلى مثل هذا التصريح مني، ومع ذلك فكانت تقول إنّها في غاية الـسعادة من أجل ذلك ثمّ تقبلني. لقد كنت أصدّقها من كلّ قلبي، بـل وبـدا لي أنّـه مـن الضروري ومن العدل أن يكون الناسُ جميعًا سعداء ولكنّ "كاتيا" كانت تستقبل النوم بعد ذلك مُطمئنة، وكانت في بعض الأحـايين تـدعي الغـضبَ مـن ثرثـرتي، وتحاول النوم.. وكنت حينما أخرج من لدنّها وأتوجّه إلى مخـدعي، أتقلّـب عـلى فراشي في حيرة هي عنوان سعادتي، وكثـيراً مـا كنـت أسـتيقظ فأعيـدُ صـلواتي في كلمات عادية شاكرةً اللـه على السعادة التي غمرني بها.

كـلّ شيء سـاكنٌ في الغرفـة، اللــهم إلّا أنفـاس "كاتيـا" النائمـة، ودقّات "منبه سريرها"، في حين أتقلّب من جنبٍ إلى جنب متمتمَـة

صلواتي، أو مُمسكة بالصّليب الذي في عنقـي أو مُقبّلتـه. كـان البـاب محكَـمَ الإغلاق وكذلك النوافذ، وربّما كانت هنالك ذبابة قطنٍ في سـماء الغرفـة. لقـد كنت أحسّ برغبة عميقة في عدم مغادرة الغرفة.

أجل، كنت أرغـب في أكـثرَ مـن هـذا، كنـت أتمنّـى ألّا يبـزغ الفجـر، وألّا يتحوّل نظام تفكيري الجميل، أحسست أنّ أحلامي وأفكـاري وصـلواتي، كلّهـا أشياء حيّة، تعيش معي هنالك في الظلمة، ترفرف حول سريري وتحلّـق فـوق رأسي، وكانت كلّ فكـرة لي مـستمدَّة منـه، وكـلّ إحـساس لي هـو لـه، لم أكـنْ أعرف بعد أن هذا هو الحبّ، لقد كنت أحسبُ أن هذه الأشياء سـتـستمرّ إلى الأبد، وأنّ هذا الإحساس لن ينقلب ولن يتغير..!

الفصلُ الثالث

وفي ذات يوم، وقد شرَعَ الفلاحون ينقلون القمحَ من الحقول، ذهبت بصحبة "كاتيا" و"سونيا" إلى مجلسنا المعهود في الحديقة في ظلال الأشجار، وقد ترامتِ الأحراشُ والحقول فيما حولنا. مرّت ثلاثةُ أيام على زيارة "سيرجي ميخاليس" لنا، وكنا نتوقّع حضوره، خصوصًا لأنّه أنبأنا بعزمه على رؤية المحصول في الحقل، وبصرنا به في الساعة الثانية يركبُ إلى حقل "راي" فحدجتني "كاتيا" بنظرةٍ معنوية ثمّ ابتسمت، وأمرتِ الخدمَ بإحضار بعض الفاكهة التي كان يغرمُ بها كثيرًا، ثمّ جلست في مقعدها وراحت تحلم. وقطعت غصنًا نضِرًا من شجرة بجواري، بلّل عصيره كفّي، ثمّ تناولت كتابي، وذهبت أختبرُ الطريق التي سيطرقها في إيابه، كانت "سونيا" تصنع بيتًا (لعروستها) لدميتها عند أصل دوحة عتيقة، أمّا اليوم فكان هادئًا عديمَ الرياح، والسحاب يتحلّل ويتبدّد، والشمس تشقّ سبيلها في عُباب السماء، بيدَ أنه كانت في جانب من السماء سحابةٌ مرقّطة دكناء، سحابة واحدة مثْقلة، وكانت قوافل العربات المشحونة بـ (التبن) تسير مُتهادية، في حين كانت الخالية تجدّ في السير محدثةً صوتًا عاليًا كالطّبل الفارغ، وكنت ترى في الحقل المغبرّ الواقع أمامنا عرباتٍ كثيرةً تتحرك،

وأصوات العربات تختلطُ بالأغاني والمناقشات الحـادة.. وكـان كـلّ ذلـك يبلـغ آذاننا مِن بعيد، وهناك، ترى النّساء في ملابـسهن المُزركـشة البهيجـة، ينحنـينَ لقلع عيدان القمح، لقد خُيِّلَ إليَّ أن الربيع قد تحوّل إلى خريفٍ أمـام عينـي. كان الغبار والحرارة ممتزجين بكلّ شبر من الهواء، الـلـهم إلّا هـواء حـديقتنا. ويؤدي الفلاحون عملَهم الثقيل المرهِق تحـتَ هـذه الحـرارة المُحرقـة، وبـين ذلك الغبار القاتل، في جلبة وضوضاء واستبشار..

وسرعان ما نامت "كاتيا" في هدوءٍ على مقعـدها الظليـل، في حـين كانـت الفاكهة اللّذيذة تبرق في الإناء، والماءُ الذي في الإبريق يلمع في ضـوء الـشمس ويكوّن ألوانَ قوس قزح، كنت أحسّ أني سعيدة جدًّا!

وكنت أقولُ لنفسي: "هل ألامُ لكوْني سـعيدة؟ ومَـن يـا تـرى ذلـك الـذي أقاسمُه هذه السعادة؟ كيف ولِمَن أسلم كلّ كينونتي وكلّ حياتي..؟"

وغرقت الشمسُ خلـف أشـجار الحديقـة، في حـين أخـذَ الغبـار ينجلي قليلًا قليلًا عن الحقول، واسـتطعت أنْ أبـصر ثـلاثَ سـنبلات يابسة، تتـأرجحُ في عـودِ قمـح مَتـين، وآبَ الفلاحـون إلى مـساكنهم وأقبلت من خلفهم العرباتُ محمّلة لآخر مرّة، وقد علتِ الأصـوات واصطخب الصياحُ والعَجيج، والنسوة يغنينَ في صوتٍ مرتفـع، ومـع

هذا لم يصل "سيرجي ميخاليس" بعد، ولو أنّني بـصرت بـه منـذ بعيـد يهـبطُ التلّ، ولكنّه ظهر فجأة من ناحية لم أكنْ أنظر إليها.

لقد دار حولَ السياج وأسرع حتـى وقـف حِيـالي، حـاسرَ الـرأس مغمـورًا بالأحْلام البارّة، ولمّا رأى "كاتيا" نائمة عضَّ شفته وأغمضَ عينيه، ثمّ دلفَ منهـا خفيف الخطا، سرعان مـا فهمـت مـن مظهـره أنّـه تحـت تـأثير حالـة سرورِه العجيب الذي كنت أبتهجُ لـه. كـان أشـبهَ بتلميـذٍ يلعـبُ في حـماس، ويبـدو الرضا والسعادة والطفولـة الغريـرة في كـلّ جـسمه مـن رأسِـه حتـى أخمـصَ القدم، تقدّم نحوي هامسًا وقد أمسك يدي:

- حسنًا، كيف حالك يا بنفسجتي الصغيرة؟

ثمّ راح يجيبُ عني:

- أوه، أنا في غاية من السعادة اليوم، أحسّ كما لـو رددتُ طفلـة، أظفـرُ في الحقول وأتسلّق الأشجار.

- لعمري، إنّ هذا خيال غريب..!

قلتُ هذا، وأنا أنظرُ في عينيه الباسمتين، وكأنّ هـذا الخيـال الغريـب قـد أعجبني..

- أحقًّا ما تقولين يا فتاتي؟ ولكن ماذا يجعلك تلطمين "كاتيا" على أنفها؟

وكان الغصنُ الذي في يميني قد أصابَ "كاتيا" فضحكت وملتُ عليه هامسة في أذنه كما لو كنت أخشى أنْ أعكّر عليها صفو إغفاءتها، ولكنّ هذا لم يكن الدافعَ الحقيقي، وإنما كنت أحبّ أن أهمس في أذنه فحسب:

- ستقول إنّها كانت مُستيقظة طيلة الوقت..

فحرّك شفتيه مقلدًا إياي، كما لو كان صوتي خفيفًا جدًّا بحيث لم يتمكّن من وعيه، ولمح طبقَ الفاكهة فتصنّع سرقته، وحمله إلى "سونيا" تحت جذع الشجرة، حيث جلستْ بين لعبها، غضبت "سونيا" أول الأمر، ولكنّه سرعان ما أفصح لها عن نيّته في مباراتها في الْتهام الفاكهة. قلتُ له:

- إذا كنت ترجو المزيد، أرسلتُ في طلب سواها، أو دعْنا نذهب بأنفسنا..!

فحملَ الطبق بعد أنْ ملأه (بالعرائس)، ويمّمنا ثلاثتنا الحديقة. جرت "سونيا" وراءنا لاهثةً تشدّه مِن ردائه، طالبة إليه أن يسلمها (العرائس)، فأعطاها لها، ثمّ التفتَ نحوي وراحَ يتكلم مُصطنعًا الجدّ، في صوتٍ خفيض، بالرغم من انفرادنا:

- أنتِ بنفسجة ما في ذاك ريب، حينما جئت إليكِ من الجوّ المغمور بالتراب والحرارة، شممتُ منكِ شذى البنفسَجِ وعبيرَه الأخّاذ.

وأردت أن أخفي الانفعالَ العنيف الذي أثارته هـذه الكلـمات في نفـسي، فسألته:

- هل المحصول جيد؟

- مِن الطراز الأول! رجالنا في المقدّمة على الدوام، كلّما تقرب المرء منهم ازدادَ حبّه لهم وعطفُه عليهم..!

- أجل، لقد كنت ألاحظُهم من الحديقة قبيل مقدمِك، فشعرت بالخجل يغمرُ نفسي دون أن أدري، وذهبت أفكّر كيف أعيش في دعَة وبطالة في حين هُم ينهكون أبدانَهم في العمل الـشاق، وكـذلك.. فقـاطعني بنظـرةٍ رحيمـة لا تخلو من القسوة، ثمّ قال:

- لا تقولي هذا القول يا عزيزتي، ليس مِن السهل أن تتكلّم في مثـل هـذا الموضوع المقدّس، لا يرضى الـلـه عن القول الرقيق في مثل هذه الأمور!

- ولكنّي فقط أقول هذا لك أنتَ.

- هذا جميل، ولكن ماذا تقولين عن الفاكهة؟

كانـت حديقـة الفاكهـة مغلَقـة، ولم يكـن الجنـان بـداخلها إذ بعـثَ بـه "سيرجي" لمعاونة الفلاحـين في جمـع المحـصول، وجـرت "سـونيا" تبحـثُ عـن المفتاح، ولكنه لم يتريثْ حتى تجيء به، بـل قفـزَ مـن جانـبِ الـسّياج، وأزاح الشبكة وهبطَ إلى داخل الحديقة، وبلغني صوتُه من الداخل يقول:

- إذا أردتِ بعضًا من الفاكهة فأعطيني الطبق.

- كلا، أريدُ أن أقطفها بيديّ، وسأبحث عـن المفتـاح إذْ "سـونيا" عـاجزة عن الاهتداء إليه..

وفجـأة، أحسـستُ أنـه مـن واجبـي أن أرى مـاذا يـصنعُ، وأعـرف في أي الحالات يبدو، وألاحظ حركاتِه في حيثما هو يأمنُ الرقباء، أضف إلى هذا أنّني كنـت أكـرهُ أن أمـضي دقيقـةً واحـدة دون أن أراه فيهـا، لـذلك جريـتُ عـلى أطراف أصابعي إلى الجانب الآخر من الحديقة حيث الـسياج قليـلُ الارتفـاع، فصعدت على حجرٍ بجانبه ثمّ أطلت عيناي على الحديقة من فوقه، فنظـرت الفاكهة الجنيّة تبرق في أغصانِها القريرة مُطمئنـة، ثـمّ دفعـتُ وجهـي تحـت الشبكة فبصرت بـ "سرجي ميخاليس".

لقد كان متأكدًا من ذهابي للبحث عن المفتاح، وأنّـه في غفلـة مـن عيونِ الرّقباء، كـان حـاسرَ الـرأس، مُغمـض العينـين جالـسًا عـلى أصـل دوْحة قديمة نشرتْ من زمنٍ بعيد، يلقي في قناةِ الماء الثّمار الفجّة، ثمّ لمحته يهـزّ كتفيـه فجـأة، ويفـتح عينيـه بـشدّة، ويتمـتمُ بألفـاظ غـير مفهومة وهو يبتسم. كانت ابتسامتُه وألفاظُه غريبة عنـه حتـى أننـي خجلتُ من تجسّسي عليه، وبلغ أذني قوله: "ماشا"، مستحيل!". ثمّ عاد يقولُ مرة أخرى: "حبيبتي "ماشا"". وكان صوتُه في هذه الكـرّة خفيـضًا عـذبًا، لم يـساورْني شـكّ في صـدق تلفّظـه بهـاتين الكلمتـيْن في هـذه

المرة الأخيرة، فاندفع قلبي يدقّ بشدّة، وتملّكني فرحٌ عظيم.. فرح مجنون.. حتى خفتُ أن أسقط من فوق السياج فأفضحَ شعوري أنـا الأخـرى، ولكنّـه اضـطرب لحركاتي فنظرَ حواليه ثمّ أسقط عينيه بسرعة وأخذ يعلو وجهه الاحمرارُ كما لـو كان طفلًا، همَّ أن يتكلّم، ولكن عبثًا حاول وأخذ وجهَـه يـشتعل ويلْتهـب، كـان يبتسمُ وهو ينظر صوبي، وكنت أبتسمُ كذلك، ثمّ شاع في وجهِه روحُ السعادة. لم يعد - بعْدُ - العمّ العجوز الذي يُرهقني بجدّه ووقاره، صار رجـلًا في مـستواي يحبّني ويخافني كما أحبّه وأخافه، نظر كلانا إلى الآخر دونَ كلام، ولكنّـه سَرعـان ما تجهّم واختفى النـورُ مـن عينيـه، وفاضـت الابتـسامة مـن شـفتيه، وعـاد إلى نغمته الباردة المتصنّعة، كما لو كنت أتيت أمرًا إدًّا، ثمّ قال:

- يجملُ بكِ أن تهبطي وإلّا آذيتِ نفسك.. هيّا نظّمي شعرك.

وأخذت أفكّر، وقد طغى عليَّ الارتبـاك، مـا الـذي يـدعوه إلى التـصنّع يـا ترى؟ ما الذي يدفعه إلى معاملتي بمثـل هـذه القـسوة؟ وسرعـان مـا شـعرتُ بقوة تدعوني إلى معارضته كي أختبر مبلَغَ نفوذي عليه وتأثير سـحري في قلبـه؛ فقلت:

- كلا، أريد أن أقطفَ الثمار بنفسي.

وفي اللحظة ذاتها بصرتُ بغـصن مثْقـل بـالثمار، فجاهـدت لإمـساكه ولكنّـه صـعد الـسياج ليقـبض عـليّ، بيـدَ أني هبطـتُ إلى الأرض في لمْـح

البصر قبل أن يتمكّن من غرضه، وحاول إخفاء انفعاله تحت ستارٍ من التصنّع والوعيد، فتمتَمَ في غضب مُفتَعَل، وقد اربدَّ وجهه:

- أيّ جنون هذا التصرف منكِ؟ لقد آذيتِ نفسك.

لقد كان مرتبكًا هذه المرة أكثرَ ممّا عهدته، حتى لقد خفتُ منه أكثر ممّا سُررت، وخجلت كذلك فصعدَ الدمُ إلى وجهي، وأخذت ألتقطُ الثّمار دونَ أن أنظرَ في عينيه، ثمّ أسرعت فاعتذرتُ عمّا بدرَ مني، والوجلُ يغمرني، وحسبتُ أنني فقدت رأيَه الجميل فيَّ إلى الأبد

بسبب حماقتي تلك، صمتَ كِلانا وشملنا ذهول، ولم ينقذْنا من سكونِنا سوى "سونيا" عائدة من المنزل بالمفتاح، فمكثنا برهةً طويلة نوجّه الحديث إليها، ولا يخاطب أحدُنا صاحبَه، ولمّا قفلنا إلى حيث "كاتيا"، أكّدت لنا أنها لم تنمْ ولمّا تغفلُ لها عين البتة، جلست ساكنة في حين حاول الرجوعَ إلى مظهره الأبوي الجاف، بيدَ أنّني لم أكن لأنخدع بعد ذلك به، ثمّ عدنا إلى المناقشة التي بدأناها منذ أيام فأعلنت "كاتيا" أنه من السهل على الرّجل أن يحبّ، ويُفصح عن حبّه، وليس الأمر كذلك عند المرأة.. قالت:

- يقول الرّجل إنّه يحبّ، أمّا المرأة فتعجز عن التصريح.

فقال:

- أنا لا أوافق، ليس مِن صالح الرجل كما ليس في مُكْنته أن يصرّح بحبّه.

فسألته:

- لماذا؟

- لأنّ هذا لا يمكن أن يكون، أي ضربٍ من الوهم هذا الذي يقال عنه حبّ الرجل، يحسب المرءُ أنّه حينما يقول هذا الكلام يضيف إلى العالم شيئًا مذكورًا، أو يأتي بمعجزة! في رأيي أنّ الرجل الذي يقول "أحبّك" إمّا أن يكون مضلّلًا لنفسه وإمّا أن يكونَ مضللًا لسواه.

فسألته "كاتيا":

- إذًا، كيف تعرف المرأة أنّ الرجل يحبّها ما دام لم يصرحْ لها بهذا الحبّ؟

- هذا ما لا أدريه، كلّ له طريقتُه في توضيح الأمور، ومتى كان يحسّ بعاطفة الحبّ حقيقة؛ فإنّ ذلك الحبّ يبدو عليه دون شك، بيد أنني حينما أقرأ القصص أتخيّل على الدّوام النظرةَ الخاطئة لـ "اليفتينانت استريلمسكي" أو (الفرد) حينما يقول: "أحبّك يا إلينالورا". ثمّ يتوقّع حدوث أمرٍ عظيم بعد ذلك، والواقع أنّه لا يحدث أي تغيّر في حالة أحدهما على الإطلاق، فعيونهما وأنفاهما وجميعُ أعضائهما، هي.. هي لم تتبدّل ولم تتغيّر!

لقد كنت مُقتنعة بهذا الكلام رغم قسوته، أمّا "كاتيا" فقد غضبت من احتقارِه الكبير لأبطال القصص الخالدة، فقالت:

- أنتَ قاسٍ جدًّا، ولكنْ خبّرني ألم تقلْ لامرأة في حياتك إنّك تحبّها؟

- أبدًا، ولم أركعْ على ركبتيّ، ولن أفعل ذلك.

الآن، أستعيد هذه المحادثة في شيء من اللّذّة الذهنية، ولا نكرانَ أنّه أحبّني، وأنّ كلّ محاولاته في سبيل التّظاهر بما يخالف ذلك خائبةٌ فاشلة، ولا يمكن أن تغيّر من رأيي فيه، ولم يحادثْني كثيرًا طوال ذلك المساء، وإنّما كان يوجّه أغلب خطابه لـ "كاتيا" و"سونيا" بيدَ أنّني لمحتُ في حركاته الحبّ، ولم أشكْ مطلقًا في ذلك فقد كنتُ فقط حزينة آسفة مِن أجله، إذْ هو يحسب من واجبه أن يكتمَ شعوره ويكبت عواطفه، ويصطنع البرودَ في حين كان من السهل جدًّا عليه أن يصرّح بمكنون فؤاده، وأن يترك نفسَه على سجيّتها مطلقًا إيّاها من القيود التي صنعَها بيديه فيعيش سعيدًا، لقد كان لتسلقي السياج إليه في الحديقة ثقلٌ غريب على روحي، كما لو كنت أتيتُ جريمة منكرة، ورحت أزعمُ أنّه سوف يقلع عن احترامي ويتنكّر لي.

وبعد انتهائنا من الشاي توجّهت إلى "البيانو" فتبعني إليه، وقال وهو يقبضُ على يدي في الممَرّ:

- وقعّي شيئًا من أجلي، لقد مضى عهد طويل لم أسمعْ فيه عزفك الشجي.

- لقد كنت ذاهبة لتوّي لذلك الغرض.

ثمّ نظرت في وجهه وقلتُ في لهفة:

- "سرجي ميخاليس" أحانقٌ عليَّ حقًّا؟

فسألني:

- مِن أجل أي شيء!؟

فقلت، وقد صعدَ الدّم إلى وجهي:

- لعصياني أوامرك هذا المساء.

ففهم ما رميت إليه، وهزّ رأسه، وصلب ذقنه كمَن يستعدّ لإعطائي لكمةً قوية، فقلت وأنا أجلس إلى "البيانو":

- إذًا.. علاقاتنا طيبة، ونحن صديقان كما كنّا؟

فأجاب:

- دون ريب.

وفي حُجرة الاستقبال الواسعة الأنيقة، لم يكـن ينـير سـوى شـمعتيْن فـوق "البيانو"، أمّا باقي الغرفة فكانت نصفَ مُعتمـة. كـان المـساءُ صـيفيًّا جمـيلًا، وكان كلّ شيء ساكنًا الـلـهم إلّا حينما تحركت أقدام "كاتيا" في الممـرّ المظلـم، فقد سُمع وقعَها عاليًا، أو حينما ضرب جواده - الـذي ربطنـاه إلى النافـذة - الأرض بحافرِه الغليظ.

جلس خلفي بحيث لم أتمكّن مِن رؤيته، ولكنني كنت أحسّ حضوره في كلّ شيء: في الحجرة نصفِ المُعتمة، في كلّ صوتٍ من أصوات الليل، في نفسي أنا.

لقد لعبتْ بأوتار قلبي نظراتُه وحركاته، ولو أنني لم أكنْ أراها، وقعت أغنية "موزارت" التي أحضرها من أجلي وحفظتها في حضوره، لم أكن أفكّر - على الإطلاق - في اللّحن الذي كنت أوقع، بيدَ أنّني أعتقدُ أنّي وقعته جيدًا، وأحسب أنّه كان مسرورًا، لقد كنت واثقة كذلك، ولو أنني لم أكنْ أنظر إليه، من النظرة الطويلة التي صوّبها نحوي من خلفي. وكانت أناملي ما تزال تتحرك تحَرُّكَها الآلي حينما التفت حواليَّ على غير قصد مني ونظرت إليه، كان الليل يزدادُ بهجة، ورأسُه مُحاطٌ بظلال وأسداف. جلس دافنًا وجهه في يديه وقد برقت عيناه وحملقتا فيَّ، فلمّا لاحظت نظره المصوّب نحوي تبسّمت وانقطعت عن العزف، فتبسّم بدوره، ولكنّه سرعان ما هزّ رأسه طالبًا مني أن أستمرّ في التوقيع.

وفي اللحظة التي توقّفت فيها، كان القمر قد صعد عرشَه من مملكة السماء، وطغى ضوؤه الفضيّ المسكوب على نور الشمعتيْن الهزيلتين، وصاحت "كاتيا" من بعيد - تقول - إنّني أسأت صنعًا بتوقّفي عن العزف وقد بلغت أروعَ قطعةٍ من النشيد، وأضافت إلى ذلك أنّني كنت أوقع توقيعًا رديئًا، أمّا هو فأعلن أنني لم أعزفْ في حياتي مثلَ ما عزفت

تلك المرّة، ثمّ شرع يسير في الغرفات جيئة وذهابًا، وكان ينظر صوْبي في كلّ جولة، ويبتسمُ، فكنتُ أبتسم كذلك، بل كنت أميلُ إلى الضحك من دون داعٍ حقيقي. لقد شاع اغتباطي في ذلك اليوم لحادثة جرتْ فيه، ذلك أنني كنت واقفة إلى "البيانو" مع "كاتيا" فكان إذا ما اختفى من غرفة الاستقبال شرعت في تقْبيل "كاتيا" في الموضع الذي أحبّه، وهو الجزء الناعم الرقيق بين عنقها وذقنها، فإذا ما عادَ إلينا تظاهرت بالجدّ والرّزانة، وأخفيت ضحكةً كبيرة.. ولكنّ "كاتيا" سألته:

- ماذا جرى لها اليوم؟

بيدَ أنّه ابتسم وهو ينظر نحوي دون أن يجيبَ على سؤالها، لقد كان يعرف ماذا حدث لي ذلك اليوم!

ثمّ نادانا إليه في الرّدهة، وقد وقف إلى النافذة الفرنسية يطلّ منها على الحديقة، قال:

- انظرا، كم تبدو الحديقة جميلة رائعة هذا المساء!

فلحقنا به، الواقع أنّها كانت أروع ليلة رأيتها في حياتي، كان البدر يشعّ نوره الرقيق على المنزل، وعلينا، ويبعثر ضوءه الفضي على الحديقة وممرّاتها المرصوفة، وكان كلّ ما عدا ذلك لامعًا مشبعًا بنقطِ الندى وأشعّة القمر الفضية، وكان ممرّ الحديقة الأكبر منارًا بالفضّة المنثورة من القمر، وبدا نبتُ الجنان مشرقًا من ثنايا الأشجار، أمّا الأزهار فكانت تبدو مرصّعة بالندى ملفوفة بنور البدر العظيم، قلت له:

- هيّا بنا نخرج لنرتاض قليلًا..

وافقت "كاتيا"، ولكنها قالت إنّه من واجبي أن ألبس معطفي، فأجبتُها:

- لا أحبّ أن أرتديه يا "كاتيا"، ستعطيني ذراعك يا "سرجي ميخاليس".

قلت هذا كما لو كان يحفظ قدمي من البلل، ولو أنّني لم أعتدْ مطلقًا أن أضع يدي في ذراعه إلّا أنني أحسست حينئذٍ بأني لم أفعلْ أمرًا غريبًا، نزلنا من الشرفة معًا ولقد كانت الدنيا جميعها بسمائها وهوائها وأشجارها وأزاهيرها غير تلك التي ألفتها من قبل.

كنا نسير في حرش كثيرِ الدّوح، وخيل إليَّ وأنا أنظر قدمًا أننا لا نستطيع المضي إلى الأمام، وأنّ دنيا الواقع قد انتهت، وأنّ المنظر الأخّاذ الجميل يجبُ أن يبقى ثابتًا إلى الأبد مُحتفظًا بجماله وروائه، ومع ذلك فقد كنّا نسير إلى الأمام وكأنّ الحائط السحري يرتفع فقط ليسمح لنا بالمرور، لقد كنّا نسير في الممرّات وندوسُ بأقدامنا الأشعة والأسداف، وكانت قدمي تضغطُ ورقة جافة في حين لمست أخرى خضراءُ وجهي في رشاقة.. أمّا هو فكان يسير معتدلًا متأنيًا إلى جانبي يحملُ ذراعي باعْتناء، ثمّ هذه "كاتيا" تسيرُ في جوارنا بحذائها المنكر الصوت، وأخيرًا هذا هو القمرُ بلا شك يطلّ علينا من ثنايا الأغصان الساكنة، وكان الحائطُ السحري يطبق علينا من كلّ ناحية كلّما جدّ بنا المسيرُ إلى الأمام، حتى لم أعدْ أتصوّر أنه في مُكنتنا التقدّم إلى الأمام، بل لم أعدْ أفهم حقيقة موقفنا، صاحت "كاتيا":

- أوه! هنا ضفادع.

ففكّرت في نفسي شاردة:

- مَن قال هذا؟ ولماذا؟

ولكنني سرعان ما تحقّقت أنّها "كاتيا" التي قالت ذلك فهي تخاف الضفادع، ثمّ نظرت إلى الأرض فإذا ضفدعة صغيرة تقفز ثمّ تنكمشُ أمامي، في حين كان خيالُها الضئيل واضحًا على خزف الممرّ فسألني:

- أنتِ لا تخافين الضفادع، أليس كذلك؟

فالتفتّ إليه، ونظرتُ في عينيه، وكان في استطاعتي أنْ أراه جيدًا، لقد كان رشيقًا فتّانًا يطفح وجهه بالبشر والسعادة. وفهمت أنه يحبّ أن يقول لي: "إنّي أحبّك". ولو أنه تحدّث إليَّ عن خوفي من الضفادع، ولقد كرّرت نظراته الجميلة وساعدها ذراعه بالضغط، كما ساعدها الضوءُ الغامر الجميل والظلال والهواء العليل، طفْنا بالحديقة كلّها، ولحقَتْ خطوات "كاتيا" القصيرة بنا، ولكنها الآن قد غالبَها الإعياء فلمْ تتمالك نفسها، ثمّ زعمت أنّ الوقت قد حان لرجوعها إلى البيت، وقلت في نفسي.. "يا للمسكينة! ولماذا لا تحسّ مثلنا سواء بسواء، أليست صغيرة سعيدةً هذه الليلة مثلي ومثله". وقفَلنا إلى البيت، ولكنه لم يغادرنا إلّا حينما أصبح البيت ساكنًا، وكلّ مَن فيه يغطّون في نومٍ لذيذ، والجواد الواقف تحت النافذة يبدي تململَه بضرب الأرض بحافره بشدّة من حين إلى حين، ولم تنبّهنا "كاتيا" إلى الوقت

في حين كنا جالسين نتناقش في أمور طفيفة غير مفكّرين في الزمن الذي يطير مِن أيدينا حتى أربت الساعة على الثانية صباحًا فتصايحت الدِّيَكة وانبلجَ الفجر حينما كان يهمُّ بالرّكوب، قال مساء الخير كالعادة، ولم يزدْ حرفًا، بيدَ أني علمت منذ ذلك اليوم بأنّه لي، وأنّه يجب عليَّ أن أحرص عليه، وأشركت "كاتيا" في سرّ قلبي، فابتهجت لهذا النبأ السارّ، وتأثرت كثيرًا، ومع ذلك فقد عرفت كيف تذهبُ إلى مخدعها لتنام، أمّا أنا فبقيت في الشرفة مستيقظة مدّة طويلة أذرَعُها جيئة وذهابًا، ثمّ توجّهت إلى الحديقة حيث استعدت كلّ كملة وكلّ حركة، ومشيت في نفس الممرّات التي سرتْ فيها إلى جانبه.

لم يغمضْ لي جفنٌ تلك الليلة، فرأيت شروق الشمس والفجر الأول، وما تمكّنت بعد ذلك من مشاهدتهما مرّة أخرى، ولقد كنت أقول بيني وبين نفسي: "لِمَ يا ترى لا يريد أن يصرح لي بحبّه؟ لماذا يخلق العقبات والصعاب ويدّعي أنه عجوز؟ في حين أنّ كلّ شيء جميل وسهل؟ لماذا يهملُ هذه الفرصة الذهبية التي قد لا تعود؟ ليقل فقط "إنّي أهواك"، ليقلها في وضوح، ليتناول يدي في يده، وينحني فوقها ويقول: "أحبك!" ليفعل ذلك مرة، ولينظر كيف أحدّثه بكل شيء! لا أحدثه، بل أحوطُه بذراعي، والتصق به ثمّ أبكي، ولكن فكرة عُرضت لي: ماذا يكون لو كنت مُخطئة وهو لا يحبّني؟ ارْتعدتُ لدَى هذه الفكرة، ثمّ تذكرت موقفي حينما قفزتُ إليه في الحديقة، وهنا شرعت دقاتُ قلبي تخفتُ وتبطئ، وانهمرتِ الدموع من عينيَّ

مدرارًا. وأخيراً رحتُ أصلي، ثمّ ساورتني فكرةٌ غريبـة هـدأتني وطيّبـت بـالي، ذلك أنّني صـمّمت عـلى أنْ أصـوم يـومي كلّـه، وشـعرت أنّ هـذا هـو الحـلّ الوحيد. وانتشر ضوءُ الفجر الواضح وخرجَ العـمّال إلى الحقـول حيـنما كنـت أدخل حجرتي.

الفصلُ الرّابع

ووقع الصيامُ في أغسطس، ولم يعجبْ أحدٌ من أهـل المنـزل مـن عزيمتـي على الصوم، ولم يأتِ في بحر الأسبوع مرة واحدة لزيارتنا، ولكنّي لم أعجـبْ أو أبدِ عدم الارتياح لغيابه، بل كنت مَسرورة.

لم أكنْ أتوقّع مجيئه قبل ذكرى ميلادي، كنت أبكّر كلّ يـوم في الاسـتيقاظ، أسيرُ وحيدة في الحديقة في الوقت الذي تُعلـف فيـه الجيـاد، أقلّـب في ذاكـرتي الخطايا التي ارتكبتُها في اليوم السابق، وأعد ما يجب عليَّ عمله في يـومي هـذا حتى أقتنع أنّه سيمرّ دون أن تدنّسه خطيئة واحدة، وبـدا لي بعدئـذٍ أنّـه مـن السهل على المرء أنْ يتجنّب الخطايا، اللـهم إلّا هَنات بسيطة من المحـتّم عليـه أن يأتيها. وعندما تحضرُ الجياد وتهيّأ للمسير، كنت أركبُ العربةَ بصحبة "كاتيا" أو إحدى الخدَم، ونذهب إلى الكنيسة التي تبعدُ عنّا ميلين، وحينما كنتُ أدخـل الكنيسة، كنت أستعيدُ دائمًا الصلاة للذين "يغشون المعابـدَ مَخافـة اللــه"، وفي تلك الساعة كان لا يوجدُ بالمعبد سوى اثنـي عـشرَ عابـدًا مـن خـدم المنـازل أو الفلاحـين، فكـانوا ينحنـون أمـامي خُـشَّعًا، وكنـت أردّ لهـم التحيّـة في إخـلاص أكيد، ثمّ أذهب إلى الرّجل الـذي يحفـظ الـشموعَ فأحـضرها منـه مُـسْتجمعة أشتات شجاعتي، وأضعُها أمام المـذبح، وكنـت ألمـحُ مـن خـلال البـاب الأوسـط

الوشاحَ الجميل الذي صنعتْه أمي بيديها، لكي يوضع على المذبح، كـان مرسـومًا على الوشـاح مَلكـان، كانـا يبـدوان لي كبـيرين جـدًّا في طفـولتي، ثـمّ الحمامـة الذهبية التي أثارت دهشتي واهتمامي مدة طويلـة، وخـرج القـسيس الـشيخ علينا، مرتديًا عباءة من نفس نسيج الكفن الـذي لفّـوا فيـه أبي، ثـمّ شرع يقـرأ بنفس الصوت الذي اعتـدت سـماعه طـوال حيـاتي في الخـدمات الدينيـة التـي كانت تعقد بمنزلنا، وفي تعميد "سـونيا"، وفي ذكـرى وفـاة أبي، وفي جنـازة أمـي، وتعالى صوتُ الشمّاس الغليظ، وصورة المـرأة العجـوز التـي كنـت أعرفهـا تمـامَ المعرفة لتوالي مشاهدتي إيّاها في كلّ حفلة كنسيّة، ملتصقة بالحـائط، شاخـصة بعينين ثابتتَيْن نحو زاوية من زوايا الهيكل، ضاغطة بأصابعها المقفلة على منديل بالٍ في كفّها، متمتمَةً بفمها الأدرد، ولم تعدْ هذه المشاهد غريبة عليَّ البتة لكثرة ما ألفتها، بل أكاد أقول إنّها أصبحت مسلّية؛ لأنّ فيها تذكارات المـاضي العزيـزة، صار كلّ مشهد منها عزيزًا نفيسًا مقدسًا له معنى مـؤثر عميـق، أصـغيت لكـلّ كلمةٍ من كلمات الصلاة، وجاهدت كي أجعلها تجاوب شعوري نحوها، وكنت إذا عجزت عن الفهم، صلّيت لله راجيةً أن ينير فؤادي أو أصلي أنا من عنـدي صـلاة أخرى، بـدلًا مـن تلـك التـي أخطـأني التوفيـق في فهـم عباراتهـا، وحيـنما كانـت الصلوات تُعاد، كنت أستعيد حياتي التي مضت، فكنـت أرى أنّ طفـولتي كانـت ظلامًا مسدفًا، بالقياس إلى النور الروحي الذي يشملُ حاضري، حتى أننـي كنـت أبكي وأرتعب كثيرًا لدى تلك المقارنة، ولكني شعرت كذلك أنّ خطايـاي الـسابقة

سيغفرها لي ربي، بل كنت أوقنُ تمامًا أنه مهْما ثقلت كفّة ذنوبي وآثامي، فـإنّ توبَتي الجميلة كفيلة بردّها خفيفة خاوية.

وعندما انتهت الصلاة، وقال القسّ: "لتهبط نعم الـلـه عليكم" كان يخيّل إليَّ أنني أصبحت قويّة البنية، وقد هبط عليَّ ضوءٌ غريب ودفء، سرعـان مـا شاع في فؤادي، ثمّ دنا القسّ منـي وسـألني متـى يمكنـه زيـارةَ منزلنـا ليلقـي علينا نصائحه الغالية، فشكرتُ له اقتراحه الطيّب بيدَ أني قلت له إنّني أفضّل أن أحضر بنفسي إلى الكنيسة ماشية أو راكبة من أجل هذا الواجب المقـدّس، فسألني: "ألا يكون في هذا إتعاب لك؟".

ولكني لم أحرْ جوابًا خوفًا من ارتكاب خطيئة التكبّر.

وكنت بعد استماعي لنصائحِه الأبويـة، أصرف العربـة إلى البيـت وأعـودُ ماشية منحنيةً لكـلّ مَـن يمـرّ بي، محاولـة أن أخلـق الفرصـة لمـساعدة الغـير ونصحهم، ولقد كنـت مـستعدّة عـلى الـدوام لتـضحية نفـسي لـبعض النـاس، لمساعدة القوم في رفع عربة سقطت، لتثبيت أرجوحة طفل، لإفساح الطريـق للآخرين، وأتحمّل المشي في الطين اللّزج.

وفي ذات مساء، سمعت البوّاب يخـبر "كاتيـا" أنّ أحـدَ خـدمنا - واسـمه "سيمون" - قد جاء يستجدي بعـضَ ألـواحٍ مـن الخـشب ليـصنعَ بهـا نعـشًا لطفلتـه، و"روبـل" يدفعـه إلى القـسيس الـذي سـيرأس الجنـازة، وأنّ البـوّاب أعطاه ما ابتغى، فسألته:

- هل هُم فقراء إلى هذه الدرجة؟

- هُم معدمون يا سيدتي، هُم لا يملكون ملحًا يأتدِمون به.

وثارَ قلبي لدى سماع هذا النبأ المؤلم، بيدَ أنّي شعرت بنوعٍ من السّرور يفيضُ عليَّ، وكذبتُ على "كاتيا" قائلة إنّني خارجة أتنزّه، ثمّ صعدت إلى الطابق العلوي وأخرجت كلّ نقودي، (لقد كانت قليلة جدًّا، ولكنها كلّ ما أملك)، ثمّ أشرتُ إشارة الصليب، وانطلقت منفردةً مخترقة الشرفة، فالحديقة قاصدةٌ كوخ "سيمون". لقد كان في آخر القرية ولم يرني أحد، وأنا أتقدّم من النافذة وأضع النقود داخلها وأقفلت زجاجَها، وخرج أحدُهم من الكوخ وزأر في صوت غليظ، ولكني عجلت بالعودة إلى البيت مترنّحة ذاهلة، كما لو كنت مجرمة. فسألتني "كاتيا" أين كنتُ، وماذا حدث لي! ولكنّني لم ألفظْ ببنت شفة، بل يمكنني أن أصرّح أنّني لم أفهمْ - على التحقيق - ما كانت تقوله، وفجأة أصبح كلّ شيء في رأي عينيَّ باهتًا ملغّزًا، وحبست نفسي في غرفتي، وأخذت أروح وأجيء فيها على غير هدى مدة طويلة عاجزةً عن أداء أي عمل، ضعيفة لا أستطيع التفكير، ذاهلة لا أميّز حقيقة عواطفي، كنت أفكّر في فرح الأسرة كلّها وبهجتها، وفيما عساهم يقولون عنْ مُنجدهم الخفي، ثمّ أسفتُ إذْ لم أسلّمهم المال بيدي، وفكّرت كذلك فيما عسى أنْ يقوله "سرجي ميخاليس" إذا سمع بالذي صنعتُه، وكنت أستشعرُ السعادة لدى ظنّي على أنّه لن يعرف أحدٌ أنني أنا المُنقذ الحقيقي، لقد كنت في غايةٍ من السعادة وشعرت أنني أنا والناس قاطبةً شرّيرون، ولهذا فقد تنكّرت لنفسي

ولكـلّ النـاس حتـى أنّ فكـرة المـوت خطـرت لي فجـأة كحُلـم سـعيد، فابتسمت وصلّيت ثمّ بكيت، وشـعرتُ للتـوّ بعاطفـة لافحـة مـن الحـبّ للدنيا جميعها بما في ذلك نفسي، وما بين أوقات الصلاة كنت أقرأ الإنجيل، ولقـد شـعرت بتجـاوبٍ بـين عـواطفي وألفاظـه، حتـى أن قـصةَ الحيـاة المقدسة تجسّمت أمامي حسّاسة سـاذجة، أصبح كـلّ شيء في رأي عينـي دقيقًا ظريفًا، حتى "سونيا" التي كنت لا أزال أوالي ملاحظتها في دُروسـها، فقد كنتُ أشـعر برقّتهـا وظرفهـا، كانـت عـلى الـدّوام تـسعى إلى الفهـم، فتسعدني ولا تشقيني، ولقد عاملني كلّ الناس بمثل معاملتي لهـم، ولقـد فكّرت في أعدائي فلم أعثرْ على طيـفٍ لواحـد مـنهم إلّا فتـاة مـن جيرتنـا، كنت أسخرُ منها منذ عام تولّى فانقطعت عن زيارتنا، فكتبت إليها معترفـةً بخطئي، راجية منها الصفحَ عن جريرتي، فأرسلت تقـول إنّهـا عفـتْ عنـي، وترجـوني أن أعفـو عنهـا بالمثـل، فـصحتُ فَرِحـة عـلى أثـر تـلاوة كلماتهـا الساذجة ولقد رأيت فيها - كذلك - شعورًا عميقًا مـؤثّرًا. وعنـدما طلبـتُ إلى مربّيتي العجوز أن تصفح عني فغَرَتْ فاها وصـاحتْ دهـشة، فـذهبت أسائل نفسي: "ترى ماذا جَعلهم جميعًا يترفّقـون هكـذا في معـاملتي؟ مـاذا قدّمت لهم حتى غنمت حبّهم؟"، وكان "سيرجي ميخـاليس" يطـرقُ ذهنـي الفيْنـة بعـد الفينـة، ولا أنكـر أنّنـي كنـت أفكّـر فيـه كثـيرًا، ولم يكـنْ في استطاعتي التخلّص من التفكير فيه، وما كنت أحسبُ التفكير فيه خطيئـة، ولكنّ تفكيري فيه كان مُغايرًا لتفكيري تلك الليلة التي تحقّقت فيهـا أنّنـي

أحبّه، لقد بدا في خيالي - الآن - كروحٍ ثانية لي بل صار جزءًا متمّمًا لآمالي وأحلامي المستقبلة، واختفت تلك المجاملة التي كنت دائمًا أصطنِعُها في مجلسه، شعرت تمامًا أنه ندٌّ لي، وصرت أتمكّن من درسه وفهمه جيدًا بوساطة التسامي الخلقي الذي ارتفعت روحي إليه، وأصبح ما كان يبدو لي شاذًّا عنه، أمرًا واضحًا غاية الوضوح، الآن فقط فهمتُ المعنى الذي كان يرمي إليه بقوله إنّ الحياة مِن أجل الآخرين هي السعادة الحقيقية الوحيدة، وأصبحت أتّفق معه في ذلك تمامَ الاتّفاق، أصبحت أعتقدُ أنّ حياتنا معًا ستكون سعيدة إلى الأبد، ولن يعكّر من صفوها شيء، ونظرت إلى المستقبل، لا للسياحة الى البلدان الأجنبية، ولا للمجتمعات الراقية الاستعراضية، ولكن إلى حياة تختلف عن ذلك كلّه تمام الاختلاف، إلى عيشة عائلية في الريف، تغمرها التضحية الدائمة، ويعزّزها الحبّ الثالث، ويعمرها الإيمانُ الأكيد بالقدرة الإلهية.

وعدتُ إلى البيت من الكنيسة ذات يومٍ وقلبي يطفرُ من فرط السعادة لدرجةِ أنّني صرتُ أخاف من الحياة، بل أخافُ من أي إحساس من شأنه أن يعكّر عليَّ هذه السعادة، ولم تجاوز العربة مدخلَ الدار قليلًا حتى بصرتُ بـ "سيرجي ميخاليس" يسوق عربتَه فحياني، ثمّ دخلنا معًا إلى الفناء، ولم أعرفْه المعرفة الحقّة إلى تلك اللحظة بقدر ما عرفته في ذلك الصباح، وأنا متملّكة لجميع حواسي، بعيدة عن تأثيره، ولعلّه فهمَ حقيقة شعوره نحوي هذه المرّة، فلقد كان

رفيقًا ظريفًا لدرجة لم أكنْ أتخيّلها مطلقًا، ولمّا هممتُ بالذهاب إلى "البيانو" أسرع هو إليه، وأغلقه بالمفتاح ودسّه في جيبه، ثمّ قال:

- لا تفسدي مظهرَك الحالي، إنّ في روحك الآن أعذبَ موسيقى سمعتها في حياتي.

ولقد أظهرتُ امْتناني لكلماته، ولكنّني في الواقع لم أسرّ كثيرًا لشرحِه ما كان يجب أن يبقي في قلبه سرًّا دفينًا، وقال لي على المائدة إنّه إنّما جاء ليقرئني الوداع لأنّه مضطرٌّ إلى السفر في صبيحة الغد إلى "موسكو"، وكان ينظر إلى "كاتيا" وهو يتحدث بيدَ أنّه سرق نظرة إليَّ، ولقد رأيته يخشى ملاحظَةَ أي علامة للجزع على وجهي، ولكنني لم أذهلْ ولم أتَأثَرْ، بل إنني لم أسأله إذا كان غيابُه سيطول، لقد كنت أتوقّع منه أن يقول هذا القول، بل أقول إنّني كنت أعرف أنّه لن يرحل.. كيف عرفت ذلك؟ ليس في مقدوري أنْ أفسّره لنفسي الآن، ولكنْ في ذلك اليوم التذكاري كان يبدو لي أنّني أعرف كلّ شيء تمّ أو سيتم، لقد كنت في شبه حلم بهيج، حينما كان يحدُث كلّ هذا، وحينما كان يتكرّر، أو حينما كنت أتكهّن بوقوعه كرة أخرى.

وأظهرَ رغبته في الخروج توًّا عقب الغداء، ولكنّه اضطر إلى الانتظار حتى يودّع "كاتيا"، وكانت قد ذهبت إلى غرفتها لدُوارٍ أصابها بعد عودتنا من الكنيسة، انسلّت أشعة الشمس إلى حجرة الاستقبال فذهبنا إلى الشرفة، ولمّا أخذنا مقاعدنا ابتدأت الحديث في هدوء،

لقد كان هذا الحديث يقرّر مـصيرَ فـؤادي، شرعـت أتحـدّث ولكـنْ حـديثًا لا يمسّ صميمَ الموضوع في شيء، ولم أدرِ كيف استوْحينا عنـاصره، ولكننـي أدري أن عزيمتي وجفافي ودقتي في التّعبير هي التي كوّنت هذا الحديث، لقد كنت أشعرُ كأنّ كائنًا آخر غريبًا عني يـتكلّم بـشفتي، كـان يجلـس قبـالتي مُـسندًا ذراعيه إلى سور الشرفة، ثـمّ جـذب بأناملِـه غـصنًا نـضِرًا فتنـاثرت الوريقـات أباديد.

ولمّا شرعت أتكلّم تركَ الغـصن واعتمـد وجهَـه عـلى يمنـاه، ولقـد كانـت حالتُه تمثّل الهدوء التامّ أو العاطفة الطاغية، نظرت إليه في اعتدال، وسألته:

- لماذا اعتزمت الرحيل؟

فلمْ يجِبْ في الحال، ولكنّـه تمـتمَ أخـيراً في صـوتٍ خفـيض، وقـد أغمـض عينيه:

- الأعمال!

فتحقّقت كيف ألفى من الصعب عليه أنْ يداجيني، وخصوصًا في إجابتـه على سؤال صريح كسؤالي، فقلت:

- أعـرْني سـمعك، أنـت تـدري كـمْ يهمّنـي حـاضري، إنـه يهمّنـي لأسـباب عـدّة، إذا سـألتك، فـلا أسـألك لأنّنـي أهـتم بمعرفـة أمـورك (فأنت تعلم أنّني صرت قريبة إليك لدرجة أنّني أصبحت مغرمَة بـك)

فأنا إن سألتك هذا السؤال (فيجب) عليك أن تجيبني: لماذا اعتزمت السفر؟ فأجاب:

- يؤلمني أن أصرّح لك بالدافع الحقيقي، لقد كنت أدمنُ التفكير طول هذا الأسبوع فيكِ وفي نفسي، فصمّمت على الرحيل، وأنت تفهمين الداعي إلى ذلك، فإذا كنت تعنيني بقولك هذا فلمَ تكلّفين نفسك مئونة السؤال..؟

ثمّ رفع يدَه، ومرّرها على جبهته حتى غطّى بها عينيه، وراح يقول:

- إنني أجدُ الأمر صعبًا.. ولكنّك قد تفهمين..

أخذ قلبي يسرع في دقّه، وقلت:

- لستُ أستطيع أن أتّهمك، لست أستطيع، بالله عليك ألّا أخبرتني بما تضمرُه، وسأكون صاغيةً إليك بإذن الله.

فغيّر جلسته، ثمّ صوّب نظره نحوي، وعادَ يشدّ الغصن نحوه، ثمّ قال بعد سكون عالجَ فيه صوتَه محاولًا عبثًا أن يخفي اضطرابَه:

- حسنًا، إنها فكرةٌ يستحيل عليَّ أن أضعَها في ألفاظ، وأنا أشعر بهذه الصعوبة، ولكنّي سأحاول شرحَها لك، فقلت:

- حسنًا.

- لنسلّم جدلًا بوجود شخصٍ نسمّيه مثلًا (أ) ودَّع الشباب، ونسلم جدلًا كذلك بوجود فتاة نسميها (ب) صبيّة في ميعة الشباب، ولم تفهم بعد الحياة، ولم تختبرِ العالم، ألجأتهما الظروف العائلية المختلفة إلى التلاقي والاختلاط، وراح يحبّها كابنة له، ولم يخَفْ مطلقًا أن تتغيّر طبيعة حبّه.

ثمّ توقّف قليلًا فلم أقاطعه، وعاد يقول وقدْ أخذ يغمض عينيه:

- ولكنّه نسي أن (ب) فتاة حديثة السن، تعتبر الحياة حلمًا باسمًا فتّانًا، فأحبّها حبًّا عنيفًا أرضى عواطفها، وجعلها تبادله الحب، وهنا ابتدأ يتخوّف ويتردّد، كان يخاف أن تتحطّم علاقتهما الوديّة القديمة، وعقدَ النيّة على الرحيل قبل أن يتمّ هذا.

فسألته خفيضةَ الصوت، ولكن مخفيةً عواطفي، ومتكلّمة في صوت حادّ:

- ولماذا كان يتخوّف من الحبّ الجديد؟

فأجاب كمَنْ جرح:

- أنتِ صغيرة وأنا لستُ صغيراً، أنتِ ترغبينَ في الملاهي وأنا أطمعُ في سواها، تمتّعي كيفما تشائين، ولكنْ ليس معي فإذا أبيت إلّا أنْ تكوني معي، فسأكون قاسيًا حيالك، وعند ذلك لا أكونُ سعيدًا، بينما أنتِ تتذمّرين.. هذا ما قاله (أ)، ثمّ أضاف قائلًا:

- ومع كلّ فهذا القول هُراء، وأنتِ تفهمين لِمَ أنا راحل، أنا لا أقدر على الاستمرار في هذا النقاش، أرجو أن تسكتي عنه، فقلت وقد شرعَ الدمعُ ينحدرُ من عيوني، وبدأ صوتي يبُحْ:

- كلا.. كلا.. هل كان يحبّها؟ أم لمْ يكنْ يشعر نحوها بحبّ؟

فلم يجبْ، فسألته:

- إذا لم يكن قد أحبّها، فلِمَ كان يعاملُها كطفلة ويتصنّع أمامها؟

فقاطع كلامي في الحال قائلًا:

- أجل. لقد عاملها (أ) معاملة سيئة، ولكنّ الأمر انتهى بينهما وافترقا صديقين.

فقلت في حماسةٍ شديدة أحسسْت بالنّدم بعدها:

- هذا فظيع، أليس هناك سبل أخرى للانتهاء؟

فقال وقد طفحَ وجهُه بالشعور البياض ناظرًا نحوي في اعتدال:

- أجل، هناك طرق أخرى، هناك طريقان على التّحقيق، ولكن أرجوكِ أن تلقي إليَّ بالك ولا تقطعي عليَّ حديثي، يقول البعض.. وهنا توقّف عن الكلام وابتسم ابتسامة عبّرت عن بالغ ألمه، ثمّ استأنف:

- يقول البعض إنّ (أ) ودّع عقله، ووقع في هوى (ب)، وأخبرَها بغرامِه، ولكنّها ابتسمت فقط، لقد كان الأمرُ عندها لا يعدو كوْنه دعابة، أمّا عنده فقد كان يعني إمّا الحياة وإمّا الموت.

فشهقت وحاولتُ أنْ أقطع عليه كلامَه، حاولت أن أقول له إنّه لم يجسر على أنْ يقول لي شيئًا كهذا، ولكنّه أسكتني وأسقط يدَه على يدي، ثمّ راح يقول وصوتُه يرتعش:

- أمّا القصة الثانية فهي أنّها أخذتها الشفقة عليه، وتخيّلت الشقية المسكينة لجهلها بالحياة أنّها أحبّته حقيقة، ولذلك وافقت على أن تكون زوجة له، وهو في جنونه صدَّق ذلك، صدَّق أن حياتها كلها قد تجدّدت وبدأت بدءًا جديدًا، ولكنها رأتْ نفسها قد خدعتْه، وأنّه قد خدعها، ولكنْ دعينا نقفل الموضوع نهائيًّا.

ثمّ صمت عاجزًا عن المضي في الكلام، وشرع يذرعُ الحجرة أمامي جيئة وذهابًا.

ومع أنه طلب أنْ نقفلَ باب الحوار في هذا الموضوع، فقد رأيت روحَه كلّها متعلّقة بجوابٍ مني، حاولت أن أتكلّم، ولكنّ الألم الذي غمرَ قلبي تركَني خَرساء، نظرتُ إليه.. لقد كان شاحبًا، وكانت شفتُه السفلى ترتعش، تألّمت من أجل ذلك بيدَ أنّني حاولت فكَّ قيود الصّمت، وابتدأت أتكلّم في صوتٍ عميق، كنت أخشى في كلّ لحظة انقطاعَه:

- هنالك ختامٌ ثالثٌ للقصة، هذا الختامُ الثالث أنه لم يكن يحبّها، بل كان يبغضُها، ولذلك راح يؤذيها. أجل.. راح يؤذيها، وظنّ أنّه كان محقًّا، وينذرها تيهًا بنفسِه، لقد كنتَ تتصنّع أخلاقًا غير أخلاقك، على نقيض أنا، فقد أحببتُك منذُ أوّل يوم تلاقَينا فيه. أجل.. أحببتك!

وعندما كرّرت لفظة "أحببتك" تبدّل صوتي العميق، على غير وعـي منّـي، وصار صيحةً عالية خِفت منها.

وقفَ أمامي مذهولًا وشفتُه تزدادُ ارتعاشًا، وسقطتْ دمعتان على خدّيه، وحاولت الصراخَ شاعرة أنني أدافعُ دموعًا متحيّرة، وقلت:

- هذا خطأ! لماذا تصنع هكذا؟

ثمّ صحتُ ونهضت تاركة إيّاه وحيدًا، ولكنه لم يكنْ ليدعني أذهب، كـان رأسُه على ركبتيَّ، وشفتاه تلثُمان يديَّ المرتعشتيْن، وتـبلّلانهما بالـدموع، وراح يهمس:

- يا إلهي، لو كنت فقط عرفت!

وظللْت أكرّر: لماذا، لماذا، ولكـنّ الـسعادة كانـت تغمـر قلبـي. الـسعادة التي رجعت إليه الآن، بعد أن كانت مُنذ قليل على وشْك مُبارحته إلى الأبد.

وبعد خمس دقائق، صعدت "سونيا" إلى الطـابق العلـوي، حيـث كانـت "كاتيا" وأعلنت في جميع البيت أنّ "ماشا" ستتزوّج من "سيرجي ميخاليس".

الفصلُ الخامس

لم يكنْ هناك ما يـدعو إلى تـأخير عقـدِ قِراننـا، ولم يكـن كلانـا يرغـبُ في التّأجيل والتسويف، لقد فكّرت "كاتيا" حقيقةً في السفر إلى "موسـكو" لـشراء ملابس الزفاف، كما أنّ والدته اقترحت أن يشتري قبلَ الـزواج عربـةً جديـدة، ويجلب أثاثًا فاخرًا، ويغلّف جدران البيت بالورق الأنيق. ولكنّا نحـن الاثنـين أمضينا ما اعتزمْناه، وهو أنّ هـذه الأشـياء، وإنْ كانـت ضروريـة، إلّا إنّـه يمكـن تأجيلها إلى المستقبل، وصـمّمنا عـلى الـزواج في الليلـة التـي تلـثْ ذكـرى عيـد ميلادي، دونَ ملابس زفاف، ودونَ أي احتفال ندعو إليه الأهل والصحاب، وبـلا عشاء فاخر، حتى أنّ الحفلـة خلـت مـن كـلّ مظـاهر الأنـس والابتهـاج ولقـد أخبرني كيف تألّمت أمّه إذ لم ندعُ النـاس، ولم نجلـبِ الأثـاث، ولم نـدخلْ عـلى البيت أيّ ظـاهرة مـن ظـاهرات التجديـد عـلى عكـس زواجهـا الـذي تكلّفـت نفقاتُه 30،000 "روبل". وأخبرني كذلك بأحاديثها السريّة في غرفتها الخاصـة مـع خادمتها الخاصة "ماريوخا"، مؤكّدة فيها أنّ السجاجيد والصور والأواني المزخرفة هي مِن الشروط الأساسية للسعادة العائلية. وفي منزلنا كانت "كاتيا" تمثّل نفس الدور مع مربّيتنـا العجـوز، "كوزمينيـشفا"، وكـان مـن المتعـذّر معالجـة الحالـة

ببساطة مع "كاتيا"، كانت شديدة الاعتقاد أنّنا - أنا وهو - حينما كنا نتباحثُ في المستقبل، كنا فقط ننظرُ إلى النّاحية العاطفية المحضَة، وكانت تقول إنّ سعادة حياتنا العائلية إنّما تستند حقيقةً إلى غطاء المائدة والمناشف والملابس الداخلية الأنيقة، كان البيتان يتبادلان الأحاديثَ السريّة العدة كلّ يوم عن أمرِ الزفاف واستعداداته، وبالرغم من أنّ علاقة "كاتيا" بوالدته كانت في غاية من المحبّة الطيبة فإنّهما كانتا تفرضان على روحيْهما في الحديث شروطًا من التقاليد البالية، ولقد أصبحتِ الآنَ شديدةَ الاتصال بـ "تاتيانا سيمونوفا" والدة "سيرجي ميخاليس" وهي سيدةٌ عجوز تمثّل الجيل الماضي أبدعَ تمثيل، دقيقة وحريصة في إدارة شئونها المنزلية، كان ولدها مغرمًا بها، ليس فقط لكوْنها أمّه، ولكنّه كان يعتقدُ إلى ذلك أنّها أمرّ وأحنّ وأحبّ نساء العالم، لقد كانت على الدّوام رحيمة بنا، وعلى الأخصّ بي، ولقد كانت مبتهجةً بإقدام ولدِها على الزواج، ولكنْ حينما دخل بي واتصلتُ بها كنت أشعرُ على الدّوام أنّها تميل إلى أن تجعلني أفهمُ أنّه من رأيها أنّ ابنها كان في إمْكانه أن يتزوّج من فتاةٍ أعلى مني، وأنّه ينبغي عليَّ أنْ أعي هذا القول وأتدبّره، والحقّ أقول إنّني فهمت ما تعنيه تمامًا وظننْتُها صادقةً مصيبة.

وقبل اللّيلة السابقة للزفاف، كان يقابلني يوميًّا، ويتناول الغداء معنا على الدّوام، ويبقَى في صحْبتنا حتى ينتصف اللّيل، ولكنْ بالرغم من أنّه قال - وأنا أعرف أنّه كان يقول الصواب - أنّه لا حياة له

بدوني، إلّا أنه لم يكن يقضي اليومَ بتمامه معي، بل حاول أن يعاودَ النظرَ في أحواله العادية، وبقيتْ علاقاتنا الخارجية على حالتها حتّى يوم الزفاف، فلم يلثمْ حتى يدي، ولم يكنْ ينتهز الفرص التي تجعلُني مُنفردة معه، بل كان ينفرُ منها ويتجنّبها بتاتًا، لعلّه كان يخافُ من ضررِ طغيان عواطفه المتأجّجة، لم أدرِ أيّنا تغير، بيد أنّي أشعر الآن في قرارةِ نفسي أنّني أصبحت في مستواه، وسرعان ما وجدت فيه عنصرَ البساطة الذي لم يرضني آنفًا، وغالبًا ما كنت أرى فيه طفلًا محبًّا متفانيًا لا رجلًا كبيرًا يبعثُ على الاحترام والتقدير، وكثيرًا ما كنتُ أقول بيني وبين نفسي: "كم كنت أخطئ فهمَه وتقديره، إنه يختلف كثيرًا عمّا كنت أتصوّره في ذهني"، وبدا لي عندئذٍ أنّ خلقه جميعًا مطروح أمامي، وأنني صرت أفهمُه حقّ الفهم، وكم كانت كلّ ظاهرةٍ في خلقه سهلةً واضحة، وكم كانت تماثلُ أخلاقي! حتى مشروعاته عن حياتِنا المقبلة كانت كمشروعاتي، بيدَ أنّها كانت أكثر وضوحًا وأحسنَ شرحًا في ألفاظه هو.

وكان الجوّ عندئذٍ رديئًا، فلم نكنْ نبرح الباب، وكانت الزاوية الواقعة بين "البيانو" والنافذة موضعَ أحاديثنا الودودة الجميلة، كان ضوءُ الشموع ينعكسُ على الظلام المُنحدر من النافذة على مَقْربة منّا، وكانت نقطُ الشمع تسقطُ بين الفينة والفينة على حوضِ الشمعتيْن البلوري، وكان المطرُ يرشقُ السّقف، وتنحدرُ المياه من الميازيت على أرضِ الحديقة حتى صار ما تحتَ النافذة شبه مُستنقع،

وأمّا زاويتنا فقد كانت تزدادُ حرارةً وسعادة وجمالًا. قال لي - ذات ليلة - وقد كنّا جلسنا طويلًا في زاويتنا:

- في قرارة نفسي شيء كنت أحبّ أنْ أفضي إليك به من زمنٍ بعيد، لقد كنتُ أدمن التفكير فيه، وأنت تلعبين على "البيانو".

فأجبته:

- لا تقل شيئًا، فأنا أعرف كلّ ما تريده!

- حسنًا، ولكن أقول لك كلمة واحدة.

- حسنًا. إنّها هذه، أنتِ لا زلت تذكرينَ بالطبع القصة التي عن (أ) و(ب).

- لا زلت أذكرها! أي قصة! مِن حُسن الحظ أنْ كانت نهايتها تلك النهاية.

- أجل.. لقد كنت على وشكِ تحطيم سعادتي بيدي، ولكنّك أنقذتني، ولكنّ النقط الأساسيّة هي أنّني كنت على الدوام ألقي الأكاذيب منذ ذلك الحين، وأنا خجل جدًّا لهذا، وأحبّ أنْ أصارحك بحقيقة

دخيلتي.

- أرجوكَ ألّا تتكلّم! في الواقع يجب ألّا تقول شيئًا.

- لا تتخوّفي من شيء، أحبّ فقط أن أحقّق موقفي، كنت أميلُ إلى المعارضة بادئ الأمر.

- مِن الخطأ أن يعارض المرءُ دائمًا!

- أجل لقد أخطأت في معارضتي، لقد قلتُ لنفسي في صرامة حينما عدتُ للريف هذا العام بعد كلّ إخفاقي وزلّاتي في الحياة: إنّ الحب لم يعدْ مِن شأني، وإن كلّ ما كان يجبُ عليَّ إنّما هو أنْ أقبل على الشيخوخة، وأتحطّم، ولكنّي كنت عاجزًا عن إيضاح شعوري حيالك مدّة طويلة، ولم أكنْ أدري أين كان يقودُني ذلك الشعور.

كنت أراك في بعض الأحايين شيئًا عاديًا بسيطًا بالنسبة لي، وفي الأحايين الأخرى كنت أشعرُ بك شعورًا عميقًا غلّابًا، ولكن لم أكنْ أدري ماذا أصنع، أمّا بعد ذلك المساء الذي مَشينا فيه في الحديقة ليلًا فأحسستُ بلوعةٍ ووَجْد عظيمين، أحسستُ بسعادتي الحاضرة أعظم مِن الواقع، ماذا يكون لو سمحتُ لنفسي أن تأمل ثمّ تفشل؟ ولكنّني بالطبع لم أكن أفكر إلّا في نفسي لأنانيتي الطاغية.

ثمّ سكت قليلًا، ونظر إليَّ:

- ولكن لم يكن كلّ ما قلته منذ ذلك الحين هُراء، لقد كان من حقّي أن أتخوّف، إنني آخذُ منك الكثير وأعطيك في مقابله شيئًا طفيفًا، أنتِ لا تزالين صغيرة، زهرة لم تتفتّح بعد، إنّك لم تحبي قبل هذا وأنا قد...

فقاطعته:

- أجل، اعترفْ بالحقيقة...

ولكنّني توقّفت خوفًا من جوابه، ثمّ أردفْت:

- كلا، لا تلقِ بالك إلى هذا القول مني.

فقال وقد فهمَ شعوري:

- تقصدين أنْ تقولي: "هل أحببت قبلَ هذا الحب؟" أليس كذلك؟

يمكنُني أنْ أجيبك كما تَشائين، كلا لم أحبّ قبل هذا مطلقًا، لم أشعرْ مـنْ قبلُ بما أشعر به الآن.

- ولكنْ، ذكرى مؤلمـة غـيّرت ملامحـه فبـدا وجهُـه قاتمًـا، وراح يقـول في حزن:

- كلا، ولكن لم أفكّر كثيرًا قبل إخْبارك بحبّي، ماذا أعطيـك؟ الحـبّ دون شك.

فسألته، وعيناي تنظران وجهَه:

- وهل هذا قليل؟

- نعم يا عزيزتي، إنّه قليل مني، فلـديك الـشبابُ والجَـمال، إنّنـي غالبًـا مـا أبقـى في فـراشي سـهرانًا، مـن فـرط سـعادتي، أفكّـر طـول الوقـت في حياتنا المستقبلة، لقد عشت كثـيرًا، أظـنّ أنّنـي وقفـت الآن إلى فهـمِ عنـاصر

السّعادة: حياة هادئة مُنعزلة في الريف، نبذلُ فيها ما في طاقتنا، كـيما تكـونُ أكثر نفعًا للناس الذين يسهلُ عليهم مكافأتنا بالعملِ الطيّب المخلص، والذين لم يعتادوا أن يقابلوا بمثلِ أعمالهم الطيبة، ونؤدّي مـن الأعـمال مـا نـرى فيـه فائدة، ثمّ الرياضة والطبيعة والكتب والموسـيقي وحـبّ الجـيران، هـذه هـي فكرتي عن السّعادة، ثمّ أنتِ في رأس القائمة، شريكة الحياة، ثمّ أطفالنـا فـيما بعد.. كيف يمكن أن يزيدَ طمعُ المرء عن هذا؟

فقلت:

- في هذا الغنية والكفاية! فرَاحَ يقول:

- فيه الكفايةُ لي، لي أنا الذي أدبّر شبابي، ولكن ليس فيه الكفاية لكِ.. ما زالت الحياة أمامكِ، وربّما ذهبـتِ تنـشدينَ الـسّعادة وقـد تعـثرين عليهـا في شيء آخر، أنتِ تظنّين الآن أنّ هذه هي السعادة

لأنّك تحبينني.

فقلت:

- أنت مخطئ، إنني كنتُ على الدوام أنشدُ هذه الحياة العائلية الهادئة وامتدحُها، وأنت ما عدوتَ فيما قلت أفكاري.

فابتسمَ ثمّ أعاد قولَه مفكرًا:

- هكذا تظنّين يا عزيزتي، ولكنْ هذا ليس فيه الكفاية لك، لديك الجَمال والشباب.

ولكنّي غضبت إذْ لم يصدقني، وخيّل إليَّ أنّ شبابي وجَمالي لا قيمة لها.

وسألتْه غضبى:

- لماذا تحبّني إذًا، لشبابي أو لروحي؟

فأجاب ناظرًا إليَّ نظرته اليقظةَ الجذّابة:

- لا أدري، ولكني أحبّك.

فلم أجب، ولكنّي نظرت في عينيه دونَ رغبة مني في ذلك، وفجأة حدثَ لي شيء غريب، لم أعدْ أرى ما يَحوطني من الأشياء، وأخذ وجهُه يختفي عني حتّى لم يعد يظهرْ لي منه إلّا عيناه، تشعّان على عينيّ ثمّ أحسستُ كأنّ عينيه ثبتَتا في رأسي، ثمّ صار كلّ شيء مبهمًا غامضًا. لم أعدْ أقوى على رؤية شيء، واضطررتُ إلى إقفال عينيّ، حتى أتحرّر من شعوري السعيدِ المخيف الذي كانت تبعثه فيَّ نظرتُه القوية.

وأخذَ الجوّ يتحسن في عصر اليوم الذي سبقَ يوم الزفاف، وامتنع سقوطُ الأمطار التي أخذت تسحّ في الصيف، وحلّ موضعها جوٌّ صافٍ، ونعِمْنا بأوّل ليلة صافية من ليالي الخريف العاري. كانت السماءُ صاحيةً شاحبة، وذهبت إلى مخدعي سعيدة لعلْمي أنّ يوم زفافنا سيكون يومًا جميلًا، واستيقظت مع الشمس وكان تفكيري في

أهمية اليوم يُرعبني ويُذهلني. خرجتُ إلى الحديقة، كانت الشمس في أوّل بزوغها تشعّ خيوطها الأولى على أوراق الأشجار الصفراء في الأحْراش القريبة، وامتلأ الممرُّ بالورق المُتساقط فسألت نفسي: أيمكن أن يكونَ هذا اليوم؟ أيمكن أنّني أستيقظ في الصباح، فأرَى نفسي في ذلك البيت الغريب الكثير الأعمدة؟ هل لن أجلسَ مرةً ثانية أنتظر حضورَه، ونجلس نتكلّم مع "كاتيا"؟ هل لن أجلسَ معه إلى "البيانو" في حجرة استقبالنا؟ هل لنْ أراه بعيدًا عني فأقلقُ عليه في الليالي المظلمة؟، ولكنّي تذكّرت أنه وعدَ بالأمس أنْ يزورنا الزيارة الأخيرة، وجرّبت "كاتيا" جلبابَ الزفاف عليَّ، وقالت وهي تنظر إليَّ:

- هذا ترتدينَه في صباح الغد.

صدقت لحظةً واحدة أنّ هذا كله حقٌّ، ثمّ شككتُ في صحّته جميعًا بعد ذلك، أيمكنُ أنني سأعيش هناك منذ اليوم مع حماتي بعيدةً عن "ناديزها" و"جريجوري" العجوز أو "كاتيا"؟، هل سأتوجّه إلى فراشي في المساء دونَ أن أقبّل مربّيتي الحبيبة، وأسمعها تقول: "ليلة سعيدة يا آنسة". هل أعلمُ بعد "سونيا" وألعبُ معها، وأقرع باب حجرتها في الصباح، وأسمعها تضحك!؟

هل سأصيرُ منذ اليوم شخصًا يختلف عنّي تمام الاختلاف؟ وهل هي حياة جديدة تحقّق آمالي ورغائبي تلك التي تفتح بابها أمامي الآن؟، وهل هذه الحياة الجديدةُ ستدوم إلى الأزل؟ غمرتني هذه

الأفكار وأنا وحيدةٌ فغُصْت في لجَّتِها وأنا قلقة. جاء مبكرًا، وكان في حضوره ما يجعلني أوقنُ أنني سأصير زوجتَه منذ ذلك اليوم بالـذات، ولم يعـدْ يخيفنـي ذلك.

وتمـشّينا إلى الكنيـسة قبـل الغـداء، لنقـوم بخدمـةٍ تذكاريـة لـروح أبي، وأخذت أفكّر ونحن رجوعٌ قائلة: لو كان حيًّا الآن، وملتُ في صمت إلى ساعد الرجل الذي صار أعـزَّ صـديق لي. وفي أثنـاء الحفلـة الدينيـة حيـنما ضـغطتُ جبهتي إلى حجر الهيكل، ناديت أبي في حماسة، لقد كنت أوقـنُ أنـه فهمَنـي، ووافق على اختياري، وأحسستُ كـأنّ روحـه لا تـزال ترفـرفُ فوقنـا وتباركنـا، وكوّنت ذكرياتي وآمـالي وأفراحـي وأحـزني شـعورًا مُقنعًـا رهيبًـا، ولاءم الهـواء الساكن النقي والهدوء والحقول العارية والسماء الشاحبة، التي تنبعـث فيهـا الأشعة اللامعـة الـضعيفة. لقـد كـان يبـدو عـلى رفيقـي أنّـه يفهـم شـعوري ويقاسِمُني إيّاه، كان يسير في هدوء وصمتٍ وكنت أنظرُ إلى وجهه بين الفيْنـة والفينة؛ فكنت ألمحُ فيه الصلابة التي تجمـع بـين الفـرح والأسـف، ونظـر إليَّ فجأة فرأيتُ أنه يهمّ بالكلام، فقلت في نفسي: "ربّما يبدأ الكـلام عـن موضـوعٍ لا علاقة له البتة بما يدور في خلدي، ولكنـه ابتـدأ في الحـال يتحـدّث عـن أبي دون أنْ يذكر حتى اسمه، قال:

- قال لي مرّة مازحًا: "يجب أن تتزوّج من "ماشا".

فأجبتُه ضاغطة الذراع الذي يحملُ يدي:

- إذًا.. هو سعيد الآن.

فتابع حديثه ناظرًا في عيني:

- لقد كنتِ طفلة حينئذٍ، لقد أحببتُ تلك العينين منذ بعيد، وكثيراً ما كنت أقبّلهما، فقط لكونِهما تشبهان عينيه، غير فاهمٍ أنهما ستصيران عزيزتين عليَّ من أجلك أنتِ، ومنذ ذلك الحين صرتُ أدعوك "ماشا".

فقلتُ له:

- أحبّ أن تسمعني هكذا الآن.

فقال:

- أنني أشعرُ لأوّل مرة أنكِ كلكِ ملك لي.

ومشْينا على الممرّ الخارجي، كنا لا نسمعُ سوى وقع أقدامنا وخرجْنا إلى الحقول، فوجدْنا فلاحًا يحرثُ في صمت، وكانت جماعاتٌ من الخيل ترعى في سفْح التل على مقْرُبة منّا، وفي الجانب الآخر أبصرت حقل قمح، لقد كانت شمس الشتاء تشعّ على كلّ شيء، وكان كلّ شيء يغطّيه نسيج العنكبوت، الذي كان يتماوج في الهواء حَوالينا، ويدخل عيوننا وشعورنا وملابسنا، ولمّا تكلّمنا كان صدَى أصواتنا يعلو في الهواء الساكت فوقنا، كما لو كنّا وحيدين في الدنيا الواسعة، وحيدين تحت الأثير، الذي تلعب فيه أشعّة شمس الشتاء.

وكنتُ أحاول أن أتبسّط معه في الحديث وأخاطبه مخاطبةَ النّدّ، ولكني خجلتُ من المحاولة فقلت له هامسة، وقد غمرني الخجل:

- لماذا أنت تُسرع في المسير؟

فقصرَ من خطواته، ونظر إليَّ نظرة حبٍّ وفرح وسعادة.

وفي البيت، وجدنا أمَّه والأضياف الذين لبُّوا الدّعوة، ولم أتمكّن من الانفرادِ به إلّا حينما خرجنا من الكنيسة متوجّهين إلى "نيكولسكو". لقد كانت الكنيسة خالية تقريبًا، نظرتُ إلى أمّه نظرةً عابرة فرأيتُها واقفة فوق المذبح على حصير، ووقفت بجوارها "كاتيا"، لابسةً معطفًا ذا شرائط برتقاليّة، وقد تبلّل خدّاها بالدموع، ووقفَتْ كذلك خادمتان أو ثلاث من خدمِنا ينظران نحونا ذاهلات، لم أكنْ أنظر إليه، ولكني كنت أشعرُ بوجوده بجانبي، أصغيتُ إلى عبارات الصلاة وكرّرتها، ولكني لم أجدْ لها صدى في قلبي، ولم أقوَ على متابعة الصلاة، ولذلك شرعتُ أنظر إلى الشموع والرسوم والصليب المزركش المعلّق على صدر القسيس، وإلى الستائر والنافذة دونَ أن أعي شيئًا، كنتُ أحسّ أن شيئًا غريبًا قد هاجم عواطفي. وفي النهاية، تلفّت القسيس نحونا، والصليب في يده، وهنّأنا، ثمّ تقدّمت "كاتيا" وأمّه فقبلتانا، وسمعنا صوتَ "جريجوري" بعد العربة، ولكني لم أكنْ خائفة: لقد تمّ كلّ شيء، وتبادَلنا القُبُلات، بيدَ أنّها كانت قبلاتٍ غريبةً لم تعبر عن شعورنا الصادق. فقلت بيني وبين نفسي: "هل هذا كلّ

شيء؟"، خرجنا من الكنيسة، وكان صوتُ العربات يصلُ آذاننـا، وهـبَّ الهـواءُ البارد على وجوهنا فوضعَ قبّعته عـلى رأسـه، ثـمّ سـاعدني بيـدِه عـلى ركـوب العربة.

وكنتُ أرى من نافذتها القمر، وقد أحاطت بـه هالـة. جلـس بجـواري ثـمّ أغلق العربة مـن ورائـه، وتهـادتِ العربـةُ بنـا بـين الـصخور، ثـمّ انحـدرتْ إلى الطريق المَرصوف، مُنطلقة بنا، ونظـرتُ إلى الحقـوق البعيـدة، والطريـقُ التـي تركناها خلفنا في ضوء القمر الشفيف. وشعرتُ بقربه مني دون أن أنظـر إليـه. وفكّرت في نفسي: "هل هذا هو كلّ ما أحرزتُه؟" لقد كنـتُ أحـسب مـن العـار أن أنفردَ به هكذا، وأنْ ألصق جسمي بجسمِه. نظرتُ إليه، عازمة عـلى الكـلام، ولكن الألفـاظ لم تـواتني، كـما لـو كـان حبّـي قـد تـلاشى مخلفًـا وراءه شـعورًا باللّوعة والحسرةِ المريرية. وأخيرًا، قال في صوتٍ خفيض مجيبًا على نظرتي:

- لا يمكنُني في هذه اللحظة أنْ أصدّق أن ما تمّ كان ممكنًا.

فقلت:

- ولكنّي على أيّة حال خائفة.

- خائفة مني يا عزيزتي؟

قال هذا، وأمسك بيدي وانْحنى عليها، بقيت يدي في يديْه لا حياة فيهـا، وآض قلبي باردًا كالجليد، فهمستُ:

- نعم..

ولكنّ قلبي شرعَ يدقّ في هذه اللحظة، وأخـذت يـدي تـرتعش وتـضغط يده، وشعرتُ بدفء، فحصَتْه عينـاي في الظـلام، وعنـد ذلـك تيقّنـت أنّنـي لا أخافه، وأنّ الخوف الذي تملّكني منذ لحظة إنّما هو الحب. حبٌّ جديـد أكـثرُ عذوبة، وأعظمُ قوّة من الحبّ القـديم. أحسـستُ أننـي مِلكـه، وأننـي كنـت سعيدةً بقوته التي يفرضها علي!

الجزءُ الثاني

الفصلُ الأوّل

مرّت أيام، وأسابيع، بل فاتَ شهران دون أن ندري، ومع هذا فقـد حوَيَـا الإحساسات العنيفة والعواطف المضطربة والسعادة التـي تكفـي لمـلء عمـرٍ بتمامه، أمّا مشاريعنا التي كنا نرسُمها في مُخيّلتنا عـن حياتنـا في الريـف فلـم تُنَفَّذ أبدًا، كما كنّا نتصوّرها.. ولكنّ الذي تمّ لم يكن يختلفُ كثـيرًا عـن المثـال الموْهوم، لم نكن نجهدُ أنفسنا في العمل وتأدية الواجـب، والتـضحية بالـذّات، والعيش من أجل الآخرين؛ تلك العيـشةُ التـي كنـت أحلـمُ بهـا قبـل الـزواج، ولكنّنا على نقيض ذلك، كنّا أنانيّيْن، يحبّ كلّ منّا الآخر، ويرغـبُ في أن يكـون محبوبًا. وكان يغمرُنا سرورٌ لا ندري له مـن داعٍ، لا نكـران في أن زوجـي كـان يتوجّه في بعض الأحـايين إلى غرفـة المطالعـة ليقـرأ، أو يـذهب إلى المدينـة في بعضِ أعماله، أو يتجوّل في المقاطعة ليباشر الأعمال في الضّيْعة، ولكنّني كنـت أراه يتألّم كثيرًا لبعاده عني، حتى أنه اعْترف لي أخيرًا أنّ كـلّ عمـل يؤدّيـه في غيابي يبدو له غامضًا مرتبكًا، ويستحيلُ عليه أن يُقبـلَ عليـه بحماسـة ونـشاط، وهذا ما كان يقعُ لي بالذّات، كنت إذا قرأت أو وقعت على "البيـانو"، أمـضيت وقتي مع والدته، أو ألقيتُ درسًا في المدرسة، إنّما أعمل هذه الأمور ليقيني أنّـه وافقَ عليها وحازتْ رضاه، وإذا لم يصحبْ أدائي لواجبي بالتّفكير فيه، فإنّ يـديَّ

تسقطان إلى جانبي، ويبدو لي من العبث أنْ أفـصلَ أيّ عمـل وأي فكـرٍ عنـه. ربّما كان هذا شعورًا خاطئًا أنانيًّا، ولكنّه على أيّة حال كـان يجلـبُ إلى روحـي السعادة، ويسمو بي فوق هذا الوجود، ومـن أجْـل هـذا كـان يـستحيلُ عـليَّ العيش بدونه، كان همّي الوحيد أنْ أفهم نظرتَـه إليَّ. كـان يـرى أنّنـي أفـضلُ امـرأة في هـذا الوجـود، كـان يعتـبرُني حـائزةً لأنبـل الفـضائل المُمكنـة، ولقـد حاولت على الدّوام أن أصبحَ تلك المرأة في نظر أفضَلِ رجل.

فاجأني ذاتَ يوم وكنت أصلي، فالتفتُّ إليه ثمّ عدت إلى صـلواتي، لم يـشأ أنْ يزعجني، لذلك جلسَ إلى المائدة وفـتح كتابًـا، ولكننـي كنـت أظنّـه ينظـر نحوي، فالتفتُّ حولي.. فابتسمَ، وضحكت، ورأيتُ أن أنهي الصلاة، ثمّ سألته:

- هل أنهيتَ صلاتك؟

- نعم، استمرّي، فإني ذاهب.

- أرجو أن تردّد صلواتك ثانية.

فلمْ يحِرْ جوابًا، وحاول مغادرة الغرفة، ولكني أوقفته وقلت:

- يا حبيبي، أرجوكَ أن تعيدَ الصلوات من أجلي!

فوقـفَ بجـانبي، وأسـقط ذراعيْـه بنـشاط، وابتـدأ الـصلاة بوجـهٍ مـؤمنٍ خاشعٍ، ونظر إليَّ فجأة يستمدّ الثقة، ويلتمسُ العون من وجهي، فلـمّا انتهـى ضحكتُ وقبّلته، فقال محمرًا خجلًا، وهو يقبّل يدي:

- أشعرُ الآن بقوّة عظيمة في روحي كما لو كنت جمعتُ في إهابي عشرةً من الرجال، وهذا كلّه بفضلك.

كان بيتُنا من تلك البيوت الريفية العتيقة الطّراز، تلك التي أنفقت أجيالٌ عديدة حياتَها معًا تحت سقفها، يتبادلون المحبّة والاحترام. لقد كان البيتُ مغمورًا بالتقاليد العائلية الطيّبة، وكانت إدارة البيت في يدِ "تاتيا فاسيميا نوفنا"، حماتي، تجريها على النّظم البالية، ولم يكن في البيت كثيرٌ من الجَمال والسّمو، ولكنّه كان يحوي الكثير من الخدَم والأثاث والمؤُنة، لقد كان يتوافرُ به كلّ شيء، أضفْ إلى ذلك النّظافة، والنظام، الباعثين على الاحترام.

كانت غرفةُ الجلوس منسّقة الأثاث، حيطانُها مغمورة بالصور، وأرضُها مُزدانة بالسجاجيد والحصير الوطني، وكان "البيانو" في غرفة الصباح، ومِن حوله أرائِكُ جميلة، ومِنضدة صغيرة عليها تماثيل برونزية، أمّا غرفة جلوسي، فقد اهتمت "تاتينا" بتنسيقها، فجعلت بها أحسنَ رياش البيت وأثاثه، وقد كان عددُ الخدم عظيمًا (وكانوا جميعًا يلبسون في أقدامهم أحذيةً خفيفة لا تُحدث صوتًا، خوفًا من التعرّض لبطش "تاتيانا" التي كانت تغضب وتثورُ لمجرد سماع وقع الأقدام)، ولكنهم جميعًا كانوا يرتعشون وجلًا من سيدتهم العجوز، ويؤدّون واجباتهم نحوي، ونحوَ زوجي بروح المحبة والودّ. كانت أرضياتُ الحجرات تغسَلُ كلّ سبتٍ، وتنظّف الطنافس دونَ تلكؤ، وكانت تقام في أوّل كلّ

شهر حفلةٌ دينية فخمة يصبّ فيها الماء المقدّس، أمّا في ذكرى عيد ميلاد "تاتيانا"، وذكرى عيد ميلاد ولدها - زوجي - وفي ذكرى عيد ميلادي (منذ اندمجت في الأسرة) فقد كانت توجّه بطاقات الدعوة إلى الجيرة جميعًا، كانت هذه التقاليد تسير دون تخلف منذ وجدت "تاتيانا".

لم يكنْ لزوجي نصيبٌ في إدارة المنزل، كان عليه فقط أن يراقب المزرعةَ والفلاحين، ولعمري لقد كان ينفق في سبيل ذلك وقتًا كبيرًا.

وفي الشتاء، كان يبكّر في الذهاب إلى الحقل، وغالبًا ما كنت أستيقظ فلا أجدُه في المنزل، ولكنّه كثيرًا ما كان يعود لتناول الشاي الأول، الذي كنّا نشربه مُنْفردين، وكنتُ أراه في تلك الأثناء فيّاض الشعور زاخرَ العاطفة، وغالبًا ما كنت أطلبُ إليه أن يطلعني على أعماله في الصباح، فكانَ يزوّدني بمعلومات تافهة، كانت تضحِكُنا حتى الصّراخ. وكنت - في بعض الأحيان - أخالفه في أمرٍ من الأمور، فيتساهلُ ويسلّم بوجهة نظري باسمًا، كنت ألاحظُ عينيه تبرقان، وشفتيْه تتحركان: لقد كان لي في رؤيته وسماع صوته غنية وسرور كثير.

كان يقول في بعض الأحيان: "حسنًا ماذا كنت أقول؟ أعيديهِ على مسامعي"، ولكنّي كنت أعجزُ عن إعادة أي شيء، لقد كان يبدو لي مِن الهُراء أن يتحدّث إليَّ في موضوع سوى موضوعنا الذاتي، فليس يهمّنا مطلقًا أي حادثٍ يحدث في العالم الخارجي!

ومضى عليَّ حينٌ من الدّهر إلى أن ابتـدأت أفهـمُ مـصالحه وأجـدُ لـذّة في الإصغاء إلى حديثه عنها، لم تكن "تاتيانا" لتبدو على مائدة الغداء أبدًا. كانـت تتناول الفطور منفردة، وتقول لنا صباح الخير، لقـد كـان مجـرّد صـوتٍ منهـا كافيًا لتعكير صفاء الجوّ الشاعري الذي كنـا نعـيش فيـه.. لقـد كنـت أضـحك حينما تجيء الخادمة حاملة إليَّ النبأ اليومي:

- أمرتني سيدتي أن أسألك هل نمتِ ليلة الأمس نومًا هادئًا مطمئنًا، أمّـا عنها هي فقد آلمها جنبها حتى أنّه أيقظها طوال الليل، ثمّ أنّ كلبًا وقحًا شرع ينبحُ في القريـة فـزالَ النـوم عـن جفونهـا، وأمرتنـي كـذلك أن أسـألك كيـف تجدينَ الخبز هذا الصباح، وأنْ أخبرك أنّ الـذي خبـزَه اليـوم هـو "نيكولاشـا" الذي يمرّن يده لأول مرة، وليس "تاراس"، وتقول مـولاتي إنّ محاولتـه لا بـأس بها؟ ولكنَّ بقسماط الشاي قد أُحرق قليلًا"، وقلّـما كنـا نتلاقـى قبـل الغـداء، كان يكتب أو يخرج مـرّة أخـرى في حـين كنـت أتوجّـه إلى "البيـانو" أو غرفـة المطالعـة، ولكنّـا كنـا نتلاقـى في حجـرة الاسـتقبال في الـساعة الرابعـة قبيـل الغـداء، وعندئـذٍ تتحـرّك "تاتيانـا سـيميانوفنا" مـن حجرتهـا، وتظهـر عنـد ظهورها خادمتان من خدَم الدار، وكـان زوجـي يقـدّم ذراعـه لوالدتـه يوميًّـا حسب العادة القديمة ليذهب بها إلى غرفة المائدة، ولكنها كانت تصمّم عـلى أن يقدّم لي ذراعه الأخرى، حتـى أنّنـا كنـا نـسير في كـلّ يـوم مُـشتبكين نحـن الثلاثـة نـصطدمُ بـالأبواب إلى أنْ نبلـغ المائـدة، وكانــت تــرأس الغــداء،

حيث يجفّ الحديث ويسوده الأدبُ والوقار، وكان يحدث في بعض الأحايين سوءُ تفاهم بين الأم وولدها يحتدّان، وكنت أتمتّع بمرأى الغضب العجيب الذي يدلّ دلالةً قوية على المحبّة القوية القائمة بينهما. وكانت "تاتيانا" تتوجّه بعد الغداء إلى الرّدهة؛ حيث تضطجع في كرسيّ كبير، وتشغل نفسها بفتْح الكتب الجديدة، في حين نحنُ نقرأ في صوتٍ مرتفع، أو نذهبُ إلى "البيانو" في حجرةِ الصباح، كثيراً ما كنّا نقرأ معًا في ذلك الوقت، بيدَ أنّ الموسيقي كانت بُغيتنا المنشودة، كانت تنعش فؤاديْنا وتجدّدهما كما لو كنّا في مبدأ معرفةٍ جديدة، وكنت حينما أوقعُ الأدوار التي يولعُ بها أجده ينزوي في ركنٍ بعيدٍ بحيث لا أكادُ أتمكّن من رؤيته. لقد كان يخجلُ من إخفاء التأثير الذي جلبَتْه الموسيقى، ولكنني كنت أنهضُ وأتقدّم إليه على حين غرّة منه، محاولة اختبار ما تجسّم في وجهِه من أمارات الانفعال، عبثًا كان يحاولُ إخفاء البريق الفجائي الذي كان يشعّ من عينيه، كانت "تاتيانا" تمرّ بنا في الحجرة مُتَصنعة عدمَ الاهتمام بنا، ولكني كنت أعلمُ أنّه لا داعٍ لخروجها من حجرتها بمثل تلك السرعة بعد تناول الغداء. وكنتُ في المساء أصبُّ الشاي في غرفة الاستقبال الكبرى، حيث يتلاقى كلّ مَن بالمنزل، كانت هذه العملية الجافة تسبب غضبي وهياجي، كنت أقوم بتوزيع الشاي على الجميع، وكنت أعتقد أنّني صغيرة بحيث لا يجدرُ بي الاضطلاع بمثل هذه المهمة الشّاقة، كنت أملأ الفناجين، وأصيح " هذا "لبيرافانوفيش" وهذا "لماريامينشنا". وكان من واجبي

أن أسأل: "هل السكر كفاية؟" وكان عليَّ أن أتركَ بعد ذلك بعضَ قوالب السكر للمربّية وسواها من الخدم، وكان زوجي يقول:

- عظيم. هذا شيء عظيم. إنّك تقومين بهذه المهمة كما لو كنت سيدة كبيرة محنّكة. وكثيراً ما كان مديحُه هذا يُزيد ارتباكي.

وبعد انتهاء الشاي، كانت "تاتيانا سيميانوفنا" تصغي إلى "ماريامينيشنا" وهي تنظر الحظّ في ورق اللعب، ثمّ تقبلنا نحن الاثنين، وتشير علينا إشارةَ الصليب، ثمّ ننصرف إلى غرفنا، بيدَ أنّنا كثيراً ما كنّا نجلس معًا حتى ينتصف الليل، وكان هذا الوقت أحسنَ وأسعد أوقاتنا، كان يقصّ عليَّ حوادث أيّامه الماضية، وكنا نرسمُ خططًا، وفي بعض الأحيان كنا نتفلسَف، وفي كلّ ذلك كنا نحاول أن نخفضَ مِن أصواتنا، خوفًا من أن يسمعنا أحدٌ فيبلغ "تاتيانا" التي صمّمت على أن نذهب توًّا إلى الفراش لننام مُبكرين، وكان الجوعُ يطغى علينا في بعض الأحيان، فكنّا نسرق الخطا إلى غرفةِ المؤنة، حيث نحصلُ على عشاء بسيط نتناوله في غرفة جلوسي على ضوءِ شمعة واحدة. لقد كنت - وإيّاه - نعيش غريبين في هذا البيت الواسع، حيث تتحكّم التقاليد، ويعظم سلطان "تاتيانا"، لم تكنْ هي التي تبعث وحدَها على الاحترام والرهبة، ولكن الخدم، والعجائز، والأثاث، والصور؛ هذه جميعًا كانت تُشعرني بالاحترام والرّهبة وتجعلني أحسّ أنّني وهو لسْنا مِن أهل هذا المكان، وأنه مِن واجبنا أن نتحرّز كثيراً في معاملاتنا، وحينما أفكّر في ذلك الآن

أرى أنّ أشـياء كثـيرة - أخـصّ منهـا بالـذكر الـضغط، والرجعيـة التقليديـة، وجمهرة الخدم العجيبة - كانت تضغطُ على فؤادي ولا تبعثُ على ارتياحي، ولكن حبّنا في نفس الوقت كان يزداد ويعظم، ومـا كنـتُ لأغـضب مـن أجـل فُقدان أي شيء وأحسبه كان كذلك.

كان "دمتري سيدوروف"، أحد الخدم، يـدمنُ التـدخين، وكـان يتوجّـه إلى حجرة مُطالعة زوجـي يوميًّـا في الوقـت الـذي نكـون جالـسين فيـه في غرفـة الاستقبال عقب الغداء؛ فيأخذ الـدّخان مـن العلبـة، ولقـد كـان منظـرًا مثـيرًا للعجب أنْ أرى زوجي وهو يتقدّم مني على أطراف أصابعه ذات يوم، بوجـهٍ لا هو طروب ولا هو متجهّم، رافعًا سبّابته مشيرًا إلى "دمـتري" الـذي لم يكـنْ يتوقّع أن يراقبه أحد، وحينما ذهب "دمتري" دون أن يرانـا، أعلـنَ زوجـي في فرحٍ عظيم أن الأمر انتهى على ما يرام، وقال إنّني حبيبتُه ثمّ تقـدّم وقبّلنـي. لقد كان يؤلمني في بعض الأحيان تمرّده على كلّ شيء وجفاؤه العجيب، ولقـد كنت أحسبُ هـذا ضعفًا، غير ملاحظَـةٍ أننـي كنـت أعمـلُ هكـذا في بعـض المواقف، وكنت أقـولُ في نفـسي: "مـا أشـبهه بطفـلٍ لا يجـسر عـلى التـصريح بمكنونات فؤاده!".

قال لي مرّةً وقد كنتُ أخبرته أنّ ضعفه يدهشني:

- يا عزيزتي، يا عزيزتي.. كيف يمكـن لرجـلٍ سـعيد مـثلي أن يتـبرّم بأي شيء!؟ لخيرٌ لي أن أفسح الطريـق مـن أن أتـصدّى للغـير، هـذا مـا أعتقدُه منذُ بعيد، لا يوجد ظرفٌ يستحيل على المرء أن يستـشعرَ فيـه

السّعادة، إنّ حياتنا نعمة! لا يمكنني على الأقل أن أثورَ وأغضب، لا شيء يبدو في عينيَّ رديئًا مرذولًا، بل كلّ شيء جميلٌ جذاب، وفوقَ كـلّ شيء: فالأحـسن عدوّ الحسن: هل تصدقين ذلك؟ إنّي حيـنما أسـمع دقّـات نقـوس، أو أتـسلّم خطابًا، أو حتى حينما أستيقظُ في الصّباح أشعرُ بخوف، يجب أن تأخذ الحياةُ مجراها، قد تتغير في بعضِ الأحيان، ولكنْ لا شيء أفضل ممّا نحن فيه.

كنت أصدّقه، ولكنّني لم أكنْ أفهمُ ما يقول، كنت سـعيدةً، ولكنـي كنـت أعتقدُ أنّ هنالك سعادة أخـرى في مكـان آخـر، لا أدري أيـن يقـعُ مـن هـذه المعمورة، سعادةٌ لا تزيد على هذه ولن تختلفَ عنها.

وهكذا انقضى شهران، ثمّ هجم الشتاءُ ببرده وصقيعه، وابتدأت - بـالرغم مِن صحبته - أستشعر بالوحدة، أفهم أنّ الحياة تعيـد نفـسها، وأنّـه لا جديـد تحتَ الشمس، لا جديد فيه ولا جديد فيَّ، وأننا إنّما كنـا نعـودُ القهقـرى إلى مـا كنّا عليه من قبْل، وشرع يُمضي في عمله وقتًا كبيرًا يحجزُه عني طويلًا، وعـاد إليَّ شعوري القديم، ورحتُ أعتقد أنّ هناك مسألة يحاول - جهـدَه - أن يخفيهـا، ولقد آلمني كثيرًا خمولُه المستمر. كنت أحبّـه الحـبّ العظـيم الـذي ملـكَ عـليّ مشاعري، ولكن حبّي، بدلًا من أن يزدادَ وقـفَ عنـد حـدّ، وابتـدأ يطـرقُ بـاب قلبي إحساسٌ آخر جديد، لا يكفيني الآن أنْ أحبّه بعد أن أحسـست الـسعادة في الوقــوع في شرك حبّــه، لقــد كنــت أنــشدُ الحركـة، ولا أتطلّــب الوجــودَ

الخامل الهادئ، كنـت أتـوقُ إلى المغـامرات والمخـاطرات بـل كنـت أحـبّ أنْ أضحي بذاتي في سبيل حبّي، أحسست في نفسي بقوة عظيمة وحيويّـة هائلـةٍ لا تجدُ لها منفذًا في حياتنا الخاملة وكان ينتابُني إغماء كنت أخجلٌ من نفسي عنـد وقوعِـه، أمّـا هـو فقـد تحقّـق مـن حـالتي الذهنيّـة، فـاقترح أن نـزورَ "بيترسبرج" ولكنني رجوْتُه أن يهملَ هذا الاقـتراح، ويتركَنـا في سـعادتنا الحقّـة دون إفسادها بهذا التغيير.. الحـقّ أنّنـي كنـت سـعيدة، ولكنّنـي كنـتُ أتـألم عندما أعلمُ أن هذه السعادة لا تكلّفني مجهودًا أو تـضحية، ولـو أنّنـي أدري بضعفي حيالَ مُواجهة أحدِهما، لقد أحببتُـه، وعرفـت أننـي كـلّ شيء عنـده ولكنّني كنت أحبّ أن يعلـم النـاسُ جميعًـا حبَّنـا، لقـد مـلأ عقـلي وحـواسي جميعها، بيدَ أنّه كان لا يزال هناك شعورٌ آخـر مـن مـشاعر الـشّباب، يتحفّـز للطّفرة والوثوب، ولا يرضى مطلقًا بحياة الرّكود التي كنتُ أحياهـا، مـا الـذي كان يحْدوه إلى القول دائمًا إنّنا يمكننا الانتقالُ إلى المدينة؟ لقد كنت أعلـمُ أنّ مشاعري القلقة، كانت هي مبعثَ خطئي وأصلَ ضـلالي، وأنّ التـضحية التـي كنت أنشدها كانت مطروحةً أمامي. كان عليَّ أن أقهر هـذه المـشاعر الآثمـة، لقد أصغيتُ إلى فكرة التغلّب على هذه الخواطر بالابتعاد عن الريف، ولكنّنـي شعرت في نفس الوقت بالخجلِ والأسف، إذ سأحول بينه وبين أعماله بأنـانيتي المحْضة. وهكذا مضى الوقت، والجليد يثقل ويكثف، ونحن معًـا وحيـدان كـما كنّـا، كنـت أقـاسي الأمـرّيْن مـن الحيـاة المتـشابهة التـي كنـا نحياهـا، والتـي

كانت تتكرّر يوميًّا. ومـن التّقييـد والحجـر عـلى عقولنـا، وخـضوعنا لـسلطان الزّمن القاهر، كان الصباح يلقانا مُبتهجين، ويرانا الغـداء مُحتـشمين، وينظرنـا المساء مُتحابين.. وكنت أقول في نفسي: "حسنٌ، أن نصنع الخير للغـير ونعـيش عيشة برّة مستقيمة كما يقـول، ولكـن هـذا قـد يجـيء فـيما بعـد، أمّـا الآن فأمامَنا أشياء أخرى، إنْ لم نعملْها سريعًـا فقـد لا نـتمكّن مـن القيـام بهـا إلى الأبد". كنتُ أرجو أن أعـيش عيـشةَ صِراع، لا كتلـك التـي كنّـا نحياهـا، كنـت أحبّ أن أسير الحياة، ولا أترك نفسي في يدِ الحياة تـوجّهني كـيفما تـشاء. لـو كنت أتوجّه معه إلى حافة هاوية ثمّ أقول: "خطوة واحدة ثمّ أهـوي.. حركـة واحدة، وسأفنى!"؛ لكان يحوطُني بذراعيه القويّتين في رعبٍ وخوف، ويمنعني من السقوط ثمّ يحْملني إلى حيثما يشاء..!

أثّرت حالتي الفكريّة في صحتي، وابتدأت أقاسي من أعصابي حتى أصبحتُ ذات يوم وأنا في صحّة متهدّمة، وآب من مكتبه قبل موعـده المُعتـاد، ولم يكـنْ من عادته أن يفعلَ هذا، فلاحظت عليه ذلك وسألته: مـا الخـبر؟ فلـمْ يـشأْ أنْ يخبرني، وراح يقولُ لا شيء، علمت بعدَ ذلـك أنّ مفـتش الـشرطة دفعـه حنقُـه على زوجي إلى مشاكسة فلّاحينا، وفرض ضرائب غير مشروعة عليهم، مـستعينًا في ذلك بأصناف التّهديد والوعيد، لم يقوَ زوجي على بلـع الإهانـة، وظهـر عليْـه الاستياء، ولكنه لم يشأْ أن يطلعني على شيء، وبدا لي أنه لا يريدُ أن يتحـدّث إليَّ عن الموضوع ظنًّا منه أنني لا زلتُ طفلة، لا أليقُ بمشاركته في أعماله، فتركته ولم

ألفـظْ ببنـت شـفة، وطلبـت إلى الخـادم أن تـدعو "ماريـا مينيـشنا" لمـشاركتنا الإفطار، وأسرعـت في تنـاول الفطـور، ثـمّ اصـطحبتُها معـي إلى غرفـة الـصباح، وشرعت أحدّثها في صوتٍ مرتفع عن الهفوة التي لم ترقْ لي مطلقًا، فـأسرع وأتى إلينا، وراح يصوّب نحونا نظـراتٍ متقطّعـة، دفعتنـي عـلى متابعـة الكـلام، بـل ألجأتني إلى الضّحك. والحقّ أن كلّ ما قلته وكلّ ما قالته "ماريا" كان يـدعو إلى الضحك، وخرج دونَ أن يوجه إليَّ كلمةً واحدة، وقصد غرفةَ مطالعتـه وأغلقهـا من دونه، ولمّا اختفى عن ناظري، تلاشت عواطفي النبيلة. والواقـع أنّ "ماريـا" تعجبت وسألتني ما الخبر؟ فارتميت على أريكةٍ دون أن أحير جوابًا، وأحسستُ أنّني أحاول الصراخ قائلة: "ما أصاب عقلـه؟ لعلّهـا بعـض الأمـور التافهـة التـي يحسبُها مهمّة، ولكنه لو حاول الإدلاء بها، لكنت أسرعتُ في تفهيمه أنهـا هُـراء، ولكنّـه يعتقـدُ أنّنـي لا أفهـم، ويـذلني بعقليّتـه الجبـارة، ويجعـل الحـقّ دائمًـا مناقضًا لأفكاري، أريد أن أتحرّك إلى الأمام، أنْ أقوم بتجربةٍ جديدة في كـلّ يـوم وفي كلّ ساعة، في حين هو يريدُ الوقوف والسكون، ويريدني على ذلـك بجانبـه، هو ليس بحاجةٍ إلى الانتقـال بي إلى المدينـة، وإنّمـا هـو في حاجـةٍ إلى أنْ يطلـق نفسَه على سجيّتها، فلا يقيد عواطفه، بل يعيش في هدوءٍ وبـساطة، هـو يتّجـه إلى هذه النصيحة دون أن يعمل بها، هذه هي الحقيقة!".

شعرتُ بالدموع تطفرُ من عينيَّ، وعلمتُ أنني مختلفة معـه لقـد كنت أخافُ هذا الاخـتلاف، وتوجّهـت إلى غرفـة مطالعتـه، ولمّـا سـمع وقْعَ خطواتي، قام ونظـرَ تجـاهي، ثـمّ عـاد أدراجَـه إلى المكتـب وشرع

يكتبُ، لقد كان يبدو في مظهر الهادئ المطمئن الذي لا يكترث لشيء، وبدلًا من أنْ أتقدّم نحوه، استندت إلى مكتبه، وفتحت كتابًا، وشرعتُ أنظر فيه، فانقطعَ عن الكتابة وراح يقلّب النظر فيَّ..، سألته:

- ماذا جرى لك اليوم يا ترى؟ لماذا لم تخبرني؟

فقال:

- لا شيء أكثر من ترّهة طفيفة، وسأدلي بها إليك، ذهب اثنان من رجالنا إلى المدينة..

ولكنّني لم أشأْ أن يتمّ حديثه؛ فسألته:

- ولماذا لم تخبرني عندما طلبتُ إليك ذلك ونحن على مائدة الإفطار؟

فقال:

- لقد كنت غاضبًا ساعتئذٍ، وخفتُ إنْ تكلّمت أنْ أقول كلامًا جنونيًّا!.

- ولكنّي كنت أحبّ أن أعلم المسألة.

- لماذا؟

- لماذا تعتقد على الدّوام أنني عاجزة عن معاونتك في أمورك؟!

فقال، وقد أُسقط القلمَ من أنامله:

- ليس المعاونة! لماذا؟ إنّني بدونك لم أكـن لأقـوى عـلى مغالبـة الحيـاة، إنّك لا تـساعديني فقـط في أعـمالي، ولكنـك أنـتِ التـي تنفّـذينها، أجـل.. إنّ حياتي تعتمد عليكِ، إنّي أقبل عـلى الحيـاة فقـط لأنّـكِ فيهـا، ولأنّنـي محتـاج إليكِ!.

فقلت في صوتٍ أذهله:

- أجل، أنا أعرف، أنا طفلة مَرحة بهيجة، يجب أن تُدلّل، وتبقى سـاكنة، ولكنّي لا أريد أن أبقَى هادئة ساكنة، هذا كثيرٌ منك.

فأسرع يقاطعُ كلامي، وقد خاف من استمراره:

- حسنًا، حينما أدلي إليكِ بالوقائع، أحبّ أن أحصل على رأيك. فأجبته:

- لا أريد أن أسمعها الآن، لا أريد أنْ أمثل حياة، ولكن أريد أن أحيا كما تحيا أنت! أريد أن أقاسمك الحياة حتى..

ولكنّني لم أستطع الاستمرار، وبدا على وجهه يـأسٌ عميـق، وطغـى عليـه الصمت لحظة، ثمّ سألني:

- ولكن أي جانبٍ من حياتي لا تشاطرينني إيـاه؟ هـل الـسبب في ذلـك إنني من دونك يتحتم عليَّ أن أحتكّ بالمفتش والعمال الأشرار؟

فقلت له:

- ذلك ليس بالأمر الوحيد.

فصرخ:

- باللـه عليكِ ألا ما حاولتِ تفهمي يا عزيزتي، أنا أعرف أن هذا اللجاج مؤلمٌ للنفس، لقد تعلمت هذا من تجـارب الحيـاة، أنـا أحبـكِ، ولا أتمنّـى لـك سوى أن تجنبي هذا اللجاج، إن حياتي تقوم على حبي إياكِ، فإياكِ أن تجعلي العيش مستحيلًا عليَّ.

فقلت دونَ أن أنظر إليه:

- تريدُ أن تكون محقًّا على الدوام!

لقد ربكنـي هـدوءه وخمولـه، في حـين كـان يطغـى عـليَّ شـعور بـالتبرم والقلق، فسألني:

- "ماشا"، ماذا حدث؟ ليست المسألة أيّنا مُصيب! ولكن هي أي تحامـلٍ تضمرينَه لي؟ لك مُهلة من الزمن قبل أن تجيبي، ثمّ أخبريني بعد ذلـك بكـلّ ما يجولُ بذهنكِ، أنتِ غير راضية عني، وأنتِ محقّة دون شك، ولكنْ دعينـي أفهم الإساءات التي قدّمتُها إليك؟

... ولكن، كيف يمكـن أن أشرح عـواطفي في ألفـاظ؟ كيـف أقـول إنّـه لا يفهمني؟ إنه يعاملني كطفلـة، وإنّنـي لا أقـوى عـلى عمـلِ شيء دونَ تبـصّره وبُعد نظره. كلّ هذه الأمور زادت من غضبي، فقلت:

- ليست لديّ شكوى أقدّمها لك، إنني مقيّدة، ولا أحبّ أن أبقي على هذه القيود، ولكنّكَ تقول إنّه لا سبيل إلى ذلك، أنتَ محقّ كما تقول على الدوام!

كنت أنظر إليه وأنا أتكلّم، فقرأتُ في ملامحه الخـوفَ والألمَ، وراح يقـولُ في صوتٍ خفيض متعب:

- "ماشا"، هذه ليست مجرّد هنةً تافهة، إن سعادتنا في خطر، أرجوكِ أن تصغي إليَّ دونَ مقاطعة، لماذا تعاكسينني؟

ولكنّني قاطعته في صوتٍ جافّ غليظ، كما لو كانـت روحٌ شريـرة تـتكلّم من حنجرتي:

- أوه.. إنني أعرف أنـك سـتجعلُ الحـق في صـفّك، إن الألفـاظ لا تعنـي شيئًا، لا شكّ أنّك محقّ.

فقال وصوتُه يرتعش:

- لو كنت تعلمين ماذا أنت تفعلين!

فانطلقت صارخة، فجلـس بجـانبي ولم يقـلْ شـيئًا، وتأسّـفت مـن أجلـه، وخجلتُ من نفسي، وتألّمت ممّا حدث، وتجنّبت النظر إليـه، وأحسـسْتُ أن أيّ نظرة منه في تلك الأثناء إنّما تعبّر عن الارتبـاك أو القـسوة، وأخـيرًا نظـرتُ إليه، وتلاقتِ العيون، كانت عيناه تنظران نحوي نظراتٍ معنويـةً رقيقـة كـما لو كانتا ترْجوان العفو، فأمسكتُ بيده وقلت:

- اعفُ عني، إنّني لا أدري ماذا كنت أقوله..

- ولكنّني فهمت كلّ شيء، لقد قلتِ الحقّ.

فسألته:

- ماذا تعني؟

فقال:

- يجبُ أن ننتقل إلى "بيترسبرج"، لا شيء يضطرّنا إلى البقاء هنا.

فقلت:

- كما تشاء.

فاحتضنَني بذراعيه ثمّ قبّلني، وقال:

- يجبُ أن تسامحيني فأنا الملَوم.

وأسمعته في ذلك المساء أدوارًا كثيرة على "البيانو"، وكان في أثناء التوقيع يذرعُ الغرفة جيئة وذهابًا، متمْتمًا بألفاظ غير مفهومة، ولمّا سألته وقف برهةً صامتًا، ثمّ أعادَ على مسمعي سطريْن من "فيرمنتوف".

"هو في هذيانه ينشدُ الزوابع ويظنّ أنها تقوده إلى السلام!".

قلتُ في نفسي: "إنه فوق البشر" هو يعرف كلّ شيء، كم يقبل المرء على حبّه دائمًا..!

نهضت وتأبّطت ذراعه، ورحتُ أسير معه جيئة وذهابًا، محاولة أن أساوي خطواتي بخُطواته، فسألني باسمًا وهو ينظرُ نحوي:

- حسنًا؟

فهمسْت:

- حسنًا!

ثمّ طغى على كليْنا شعورٌ لذيذ غريب، فابتسمت منّا العيون واتسعت الخُطوات، وارتفعنا على أطرافِ الأصابع، وبقينا هكذا غير مُكْترثين بقلقِ والدته التي كانت تتظاهرُ بالصبر والثبات في الردهة، ثمّ اخترقنا البيتَ حتى غرفة المائدة، ثمّ توقفنا ونظر كلّ منا إلى صاحبه، ثمّ انفجرنا ضاحكين.

وقبْل عيد الميلاد بليلةٍ واحدة، كنّا في "بيترسبرج".

الفصلُ الثاني

وفي رحلتنـا إلى "بيترسـبرج"، أمـضينا أسـبوعًا في "موسـكو" نـزور أقـاربي وأقارب زوجي، كنّـا نبحـث عـن مـسكنٍ لنـا، ونـرى وجوهًـا جديـدة، وبـلادًا غريبة، كلّ هذا مرّ بي كحُلم، كلّ شيء جديد، غريبٌ، بهيج، ويزيـدُ في جَمالـه وجودُه إلى جانبي وحبّي إيّاه، وبدا لي عندئذٍ أنّ حياتنـا في الريـف لا أهميـة لها ولا داعٍ، كنت أتوقّع أن أرى الناس في المُجتمعات جفـاةً مُتَكـبرين، ولكـن كم كانَ عجبـي عظـيمًا حيـنما كنـت أقابـلُ في كـلّ مكـانٍ بـالعطف والمحبّـة والسرور، لا مِن الأقارب فحسب، ولكنْ من الغرباء أيضًا، بدا لي أنّني أصبحتُ موضـوعَ حـديثِهم الوحيـد، وأنّ وصـولي إلى المدينـة هـو الأمـرُ الـذي كـانوا ينشُدونه جميعًا، ليتمّوا سعادتهم، ولقد دهشت كثيرًا حينما أبصرتُ في ذلـك المجتمـع الـذي كنـت أحـسبُه أرقـى مجتمـع، أناسًـا كثـيرين يحبّـون زوجـي ويتعلّقون به، ولو أنّه لم يكن ليتحـدث لي عـنهم أبـدًا، لم أكـنْ أفهـم جفـاءه حِيَالهم ومجهوداته التي يبذلها في سبيلِ تجنّب علاقاتهم التي كانت تبـدو لي ضربًا من الملق والدّهان، حقيقةً إن أكثر الناس عطفًا عـلى المـرءِ هُـم أحـبُّهم إليه، وجميعُ الناس هنا يعطفون علينا عطفًا لا مزيد عليه.

قال لي قُبيْل مبارحة الرّيف:

- انظري ماذا يجب علينا اتّباعه، نحنُ هنا أغنياء، أمّا في المدينة فلنْ نكون كذلك أبدًا، لن نمكثَ بعد عيد "الشرقيّين"، ولن نغشى المجتمعات، وإلّا أصبح أمرُنا في غاية الحرج، ثمّ إني لا أحب ذلك من أجلكِ كذلك.

- علام نغشى المجتمعات؟ سنذهب إلى بعض المسارح، وسنرى أقاربنا، ونزور "الأوبرا"، ونسمع بعض المقطوعات الموسيقية، ثمّ نكون على أهبَة العودة قبل العيد "الشرقي".

ولكنّنا نسينا هذه القواعدَ منذ اللّحظة الأولى لهبوطنا "بيترسبرج"، لقد ألفيتُ نفسي في دنيا جديدة بهيجة، محوطةً بالملاهي الجمّة،

التي تشبهُ ما نقرأه في القصص العجيبة، حتى أنني ألقيت نظرة على ماضي حياتي والخططِ التي كنت أحاول تنفيذَها وتكريس حياتي مِن أجلها، فكنت أقولُ في نفسي: "لقد كان كلّ ذلك تمهيدًا، كان لعبًا واستهتارًا بقيمةِ الحياة، ولكن هنا الحياة الحقّة! وهنا المستقبل كذلك"، أمّا الشعور المُقلق الذي أمضّني في الريف واسْتحوذ على مشاعري، فسرعان ما اختفى وتبخّر بتأثير سحري عجيب، وأصبح حبّي لزوجي هادئًا ساكنًا، ولم أعدْ أشغل ن فسي بالتساؤل عن مبلغ حبّه لي.. حقيقة، لم أكن لأشكّ في ذلك الحب، فقد كان يفهمُ كلّ خواطري، ويقاسمني مشاعري وإحساساتي، ويمتدحُ آرائي

وأعمالي، وإذا حدثَ وطغَى عليه شعورُه القديم، فإنني لم أعدْ لأهتمّ له، وفهمت - كذلك - أنّه لم يكن يحبّني فحسب، ولكنه كان يفخرُ بي ويزهو، كنّا إذا قُمنا بزيارة، أو كونًا علاقة صداقة مع بعض الناس، أو استقبلنا في دارنا زوّارًا، ولعبت دور المضيفة؛ تقدّم منّي في النهاية وقال:

- حسنًا أيّتها الحسناء الصغيرة! هذا عظيم جدًّا.. لا شيء يدعو إلى التخوّف.. نجاح محقّق!

ولقد كان مديحُه هذا يعظّم من شعوري بالسعادة والسرور. وعقب وصولنا، بعثَ خطابًا إلى والدته، وطلب إليَّ أن أشفعه بكلمةٍ لها من عندي، فصمّمت على قراءة ما كُتب، ولكنّه رفض أن أطّلع عليه، وبالطبع زادَ إلحاحي وتصلّب رأيي، فقال لي:

- إنّكِ لا تعرفين يا "ماشا" كمْ أحبكِ، وقد لا أعرف ذلك على التّحقيق، مِن أين لك هذه الجاذبية، وهذه البساطة؟! الجميع يسرون منك، لن أكفيك حقّكِ من الإعجاب والتقدير، بل ويجبُ عليَّ أن أزيد حبّي لك، لو كان في مُكنتي هذه الزيادة.

فقلتُ في نفسي: "الآن عرفت مكانتي ودرجتي".

وطغى عليَّ السرور، وغمرني الفرح، فأحسستُ أنني أحبّه أكثر من الأوّل، لقد كان نجاحي في علاقاتنا الجديدة يدهشني تمامَ الدهشة.

سمعتُ من كلّ الأفواه كيف أن عمّه قد أخذ عني فكرةً حسنة، وكيف أن عمّته كانت تحلُم بي، ولقد أخبرني أحدُ المعجبين أنه لا تزاحمني ولا تدانيني سيدةٌ من سيدات "بيترسبرج"، وأكدت سيدة أنني يمكنني تزعّم المجتمعات لو عُنيت بذلك الأمر، وممّا أخصّ بالذكر أنّ ابنة أخِ زوجي، وهي البرنسيس.. د..، وكانت سيدة متوسطة العمر ومُحتكّة بالمجتمعات أحبّتني حبًّا عظيمًا لأوّل وهلة، وكانت تُجاملني مجاملاتٍ أذهلتني وغيّرت فكري، وعندما دعتني لأول مرةٍ لحضور حفلة راقصة، نظر زوجي إليَّ، وسألني عن رأيي، ولقد اكتشفتُ على وجهه نظرةً مفتعلة، فهزَزْت رأسي علامة الإيجاب، وأحسسْتُ بالدّم يخضبُ وجهي، فقال زوجي وهو يضحكُ ضحكته الطبيعية الساذجة:

- حينما تحبّ التصريح برغباتها تبدو كما لو كانت مذنبة!

فأجبْته باسمة، ناظرةً نحوه بيقين:

- ولكنّك قلت إنّه يجب علينا الابتعادُ عن المجتمعات، وأنك لا تعني بها شخصيًّا.

فقال:

- لنذهب ما دمتِ تعنين بها.

- الأفضل أن نمتنع عن الذهاب.

- هل هذا رأيكِ؟ كم هو عقيم!

فلمْ أحرْ جوابًا، وراح يقول:

- ليـست المجتمعـات في ذاتهـا خطـرًا داهـمًا، ولكـن نقـص الأمـاني الاجتماعية مسألة خطيرة، يجب أن نقبل الدعوة، وسنذهب.

قلت:

- الحقّ أقول لك إنّنـي لم أهـتمّ في حيـاتي لـشيء اهتمامـي برؤيـة هـذه الحفلة الراقصة!

... وهكذا ذهبنا، ولقد كان سروري يفوق مـا كنـت أتوقـع، بـدا لي جليًّـا أنني المحور الذي يدور حوله كلّ شيء، وحـسبت أن هـذه الحجـرة الواسـعة إنما كانت مضاءةً بالثريات من أجلي، وأن هذه الموسيقى الشجيّة إنّمـا تـصدح لي فقط، وأنّ هـذا الجمهـور الحاشـد لم يـأتِ إلّا ليتمتـع بـالنظر إليَّ، فالنـاس جميعًا: حقيرهم، وعظيمهم، نساؤهم، ورجالهم؛ لم يزدحموا في صـالة الـرقص إلّا ليظهروا لي حبّهم وولاءهم.

جـاءت إليَّ ابنـةُ أخ، وأخبرتنـي أنّنـي ليـست كـسائر النـساء الحاضرات، وأنّ بساطتي وجمالي طبيعيّان لا دخـل للـصَّنْعة فـيهما، ولقدْ أغـراني هـذا النّجـاح، حتـى أنني صـارحت زوجـي بمـيلي إلى حضور حفلتين أو ثلاث مِـن تِلكُـم الحفـلات الراقـصة التـي سـتقام

في الموسم، إذ صرت - جدّ - مولَعة بها، ثمّ أضفت إلى ما قلت: "ولكنني لا أعني حقيقة ما قلت!".

فوافق في الحال، وذهب معي أولًا في ارتياح ظاهري، ولقد كان يسرّه نجاحي، بل وبدا لي أنه قد نسيَ تمامًا غيرته القديمة، أو أنه قد غيّر رأيه.

ولكنْ حدثَ أن صرتُ أراه مثقلًا مُتعبًا مُتبرّمًا بالحياة التي كنا نحياها، ولقد كنتُ إذ ذاك بحيث لا أملك التفكير في حالته، وحينما كنت ألاحظُ عينيه تنظران نحوي مُتسائلتين في شدّة وانتباه، لم أكن أتحقّق ما تَعنيان. لقد أعماني هذا الشعورُ الفجائي الذي لمسته في كلّ علاقاتنا الجديدة، وأربكني الجوّ الغريب الذي يغمرُه اللهو، والأناقة، والخيال، وسرّني كثيرًا أن أجدَ نفسي متفوّقة، ومع هذا فقد كنتُ أحبّه أكثر من الأول، ولذلك لم أفهمْ وجهَ اعتراضه على حياتنا في المجتمعات، كنت أشعرُ بالكبرياء، والخيلاء، حينما كنت أجذب نحوي كلّ العيون في الحَفلات الراقصة، بينما يتركني هو سريعًا ليخفي نفسَه في المعاطف السوداء، كما لو كان يخجل مِن أنْ يعرف الناسُ عنه أنّه زوجي. وكثيرًا ما كنت أقول في نفسي وهو منزوٍ في ركنٍ من أركان الصالة: "انتظرْ قليلًا.. وتريّث حتى نعود إلى المنزل!، وعندئذٍ سترى وستفهم، لمَن أحاول أن أبدو جميلة فتّانة، ومَن أحبّ وأعزّ في مَن احتاطوني هذا المساء!". لقد كنت واثقةً من أن نجاحي

يسرّني فقط، من أجلِه الخطر الوحيد الذي كنت أخشاه هو أنّ زوجي أصبحَ غيورًا، ولكنه كان يثقُ فيَّ ثقةً عمياء، وكانت تبدو عليه الرّزانة والهدوء، لم يكنْ من شأنه أن يصادقَ الشّبان، فلم أكنْ أرهبُ الخطر مِن هذه الناحية، بيدَ أنّ عناية قومٍ كثيرين بي في المجتمعات أبهجتني، وأشبعت خيالي، وأقنعت كبريائي، ودفعتني إلى التفكير في أنّ هنالك نقصًا في حبي لزوجي، وهكذا أصبحت أكثرَ تحفّظًا في علاقاتي به، قلت له - ذات مساء - وقد عُدنا من المَرقص مُشيرة بأصبعي نحوه:

- آه.. لقد رأيتُك هذا المساء تتحدّث حديثًا وديًّا مع مدام... ن..

لقد كان يتحدّث حقيقة إلى هذه السيدة، التي كانت أشهرَ من نارٍ على علم في مجتمعات "بيترسبرج"، أمّا هو فكان أكثرَ صمتًا وألمًا من العادة، ولم أقلْ ما قلته إلّا لأنشِّطه وأوقظَ عواطفه من سُباتها، فقال وهو يصكّ أسنانَه ويهتزُّ من الألم:

- ما جدوى الكلام عن هذا الموضوع، خصوصًا لك أنت يا "ماشا"؟ دَعي هذا لِسُواكِ، إنّ مناقشةً مِن هذا النوع ربّما أفسدت علاقاتنا التي لازلتُ أتمنّى أن تعود إلى ما كانت عليه.

فخجلت، ولم أحرْ جوابًا.. فسألني:

- هل تظنّين أن علاقاتنا الطيّبة ستعود كما كانت يا "ماشا"؟

فقلت، وكنت أعتقدُ صدقَ ما أقول في تلك اللحظة:

- إنّها لم تفسد ولن تفسد..!

فقال:

- ليسمع منكِ اللـه! إذا كـان الأمـرُ كـما تَـرَيْن؛ فـسنعجّل بالرحيـل إلى الريف.

ولكنّه سبق أنْ قال هذا القول مرّة.. على العموم ظهـرَ عليـه أنـه مُقتنـع راضٍ مثلي، ولقد كنت سعيدةً طروبًا! ولقد قلت لنفسي:

"إذا كان يبدو جافًّا متـألّمًا في بعـض الظـروف؛ فـإنّني أتحمّـل ذلـك مـن أجلِه في الرّيف، إذا تغيّرت العلاقة فيما بيننا قليلًا؛ فإنّ الأمـور سـتعودُ إلى مـا كانـت عليـه في الـصّيف، حيـنما ينفـردُ أحـدُنا بـالآخر في مَنزلنـا مـع "تاتيانـا سيميانوفنا".

هكذا مرّ الشتاء، وبقينا بالرّغم مِن خطَطنا، "بيترسبرج" بعد عيد الفِصح، وأخذنا نتأهّب للسفر بعد أسبوع. فانْتهيْنا مـن حـزم الأمْتعـة، ولقـدِ اشـترى زوجي نباتاتٍ للحديقة وهدايا للقوم في "نيكولسكو"، ولقد كـانَ يبـدو عليـه الحبّ والفـرح الحقيقيّـان، ثـمّ حـدث أن جـاءت البرنـسيس.. د.. ورجَتْنـا أن نبقى حتى يوم السبت، لنحضر حفلة الكونتيس (ر)، كانت الكونتيس تحرصُ على وجودي؛ لأنّ أميرًا أجنبيًّا كان يزور "بيترسبرج"، ورآني في إحدى الحفـلات، أراد أن يتعرّف إليَّ.. لقد كان هذا في الواقع الـسببَ الرئيـسي لإقامـة الحفلـة، أمّا هـذا الأمـير فقـد صرّح أننـي أجمـلُ فتـاة وقـع بـصره عليهـا في "روسـيا"

كلّها. وكان الناس جميعًا يحتشدونَ للذهاب هناك، فرأيت مِن غير المناسب أنْ أمتنع عن الذهاب.

كان زوجي يتحدّث إلى بعضهم في الجانب الآخر من الغرفة حينما قالت الأميرة:

- إذن، ستذهبين يا "ماري"؟

فأجبتُها مُتردّدة - وأنا أنظر إلى زوجي، وتقابلت عيوننا، ثمّ أشاح بوجهه عني - :

- لقد صمّمنا على الرحيل بعد باكر.

فقالت الأميرة:

- يجبُ أن أحمله على البقاء حتى نذهب يوم السبت فتُذْهلين العقول، أليس كذلك!؟

فأجبتُها، وقد بدأت أحنّ إلى رأيها:

- هذا يقلبُ خططَنا رأسًا على عقب.

وأتى صوتُ زوجي من آخر القاعة يقول:

- أرى مِن اللائق أن تذهبَ هذا المساء إلى الأمير، وتظهر له احترامَها وشكرها.

فقالت البرنسيس ضاحكة:

- لأوّل مرةٍ أراك أصبحت غيورًا، لن تبقى زوجتك لتشريف الحفلـة مـن أجل الأمير، ولكن مِن أجلنا جميعًا، إنّ الكونتيس تهتمّ كثيرًا بوجودها.

فقال زوجي في برودٍ، وقد بارح الغرفة:

- إذًا، لتبقى معها إلى الأبد.

كان زوجي مُضطربًا مَحمومًا عندما ألقى هذه الجملة، وهذا ما أمـضّني وأسقمَ روحي، وتوجّهت إليـه عنـدما انـصرفت ضيفتنا، وكـان يـذرعُ غرفتـه ماشيًا قلقًا مُفكرًا، ولم يرني ولم يسمع وقْعَ أقدامي حيـنما تقـدّمت منـه عـلى أطراف أناملي، ولمّا نظرت إليه قلت بيني وبين نفـسي: "لا شـكّ أنـه يحلـم في بلدتـه العزيـزة "نيكولـسكو"، في قهـوة الـصباح التـي كنّـا نتناولهـا في حجـرة الاستقبال، في الحقـول، مـع العـمّال، في الأمـاسي التـي كنـا نقطعهـا في حجـرة الموسيقى، وفي عشائنا السريّ في منتصف الليل".

ولقد قطعتُ على نفسي عهدًا قائلة: "يجب عليَّ ألّا أفقد سرورَه وعنايتـه بي من أجل ملق كلّ أمراء هذه الدنيا". وكنـت عـلى وشْـكِ أن أقـول إنّنـي لا أحبّ الذهاب إلى المرقص، بل أرفض الذهاب رفضًا باتًّا، حينما التفت حواليه، فرآني، لقد آض وجهه الرقيق المفكر، متوحشًا عاصفًا، لم يكن يبدو لي كإنـسانٍ عادي، ولكنه كان يظهر كـما لـو كـان إلهًـا، سـألني وقـد نظـر نحـوي في غـير اكتراث:

- ماذا يا عزيزتي؟

فلم أحرْ جوابًا، لقد ارتبكت؛ لأنه كان يخفي عنـي نفـسَه الحقيقيـة، ولا يحبّ أن يكون الرجل الذي أحببته، سألني:

- هل تحبّين الذهاب إلى تلك الحفلة يومَ السبت؟

فقلت:

- كنت أودّ، ولكنك لا توافق، ثمّ نحنُ حزمْنا أمتعتنا.

لم أسمعْ من قبل صوتًا جافًّا كهذا الذي سمعتُه منه، ولم أرَ في حياتي ذلك البرودَ الذي بدا في نظراته، قال:

- سآمرُ بحلّ الأمتعة، وسأبقى حتى الثلاثاء، وعلى ذلك ففي اسـتطاعتكِ الذّهاب إلى الحفلة إذا كنت تحرصين عليها، أمّا أنا فلنْ أذهب.

وشرعَ يسير في الغرفة على غير هـدًى دونَ أن ينظـر إليَّ، كعادتـه عنـدما يكون مُغتاظًا، فقلتُ وأنا أتابعه بنظراتي أيْنما سار:

- أنا في الواقع لا أفهمك. لقد قلت إنّك لا يمكن أن تثور؟

ما الذي يحدوك إذًا إلى معاملتي هذه المعاملة الغريبـة؟ إنّنـي مـستعدّة أنْ أضحي بهـذا الـسرور مِـن أجلـك، ولكنـك تـسمح لي بالـذهاب في لهجتـك التهكميّة الجديدة!

فراحَ يسخر مني قائلًا:

- إذاً، أنت تضحّين! حسنًا وهكـذا أفعـلُ أنـا، لا شيء أحـسن مـن هـذا، نحن كاملي الكرم، أي مثال رائع للسعادة العائلية!

لم أعتدْ سماعَ هـذه اللّغـة التهكميّـة اللاذعـة منـه قبـل هـذا، ولكنـي لم أخجل من قوله، ولم أضـطرب لهـذا الـتهكّم، بـل دعـاني لأن أتهكّـم عليـه أنـا الأخرى، كيف أمْكنَه أن يقول هذا الكلام، وهو الذي كـان عـلى الـدّوام مثـالًا للصراحة والبساطة والإخلاص في حديثه إليَّ!؟

وماذا فرط منّي حتى يقول هذا القول؟ لقد عقدت النية عـلى التـضحية بهذا السّرور الذي لا أجدُ فيه ضررًا، ولقد كنتُ - منذ لحظة - أجـدني أفهـمُ عواطفه ومشاعره.. أمّا الآن فقـد اختلفنـا، هـو يتجنّـب الـصراحة وأنـا أميـل إليها، فقلت هامسة:

- لقـد تغـيّرت كثـيرًا، حتـى أصـبحت موضـعَ اتهامـك؟ ليـست هـذه المجتمعات هي السبب، ولكنْ يبدو لي أنّ هناك شيئًا قديمًا في نفسي، لم هـذا الاتّهام؟ لقد كنت تتخوّف منه فيما مضى، قل لي بملء الصراحة ممّ تشكو؟

قلت في نفسي: "ماذا عساه يقـول؟ لم يبـدرْ منـي طيلـة هـذا الـشتاء مـا يدعو إلى غضبِه وتغيّره". توجّهت إلى منتصف الغرفة ونظرت إليـه، وقلـت في نفسي: "سيأتي ويضمّني إلى صدره، وسينتهي الإشكال"، ولكن كمْ أنـا آسـفة إذ لم تتحْ لي حتى الفرصة التي أثبت له فيها أنّه مخطئ، ووقفَ في نهاية الغرفـة ونظر نحوي، ثمّ قال:

- ألم تفهمي بعد؟

- كلا، لست أفهم.

- إذن، يجب أن أوضّح لك المسألة، إنّ ما أشعر به ينغّص عليَّ عيشي لأول مرة في حياتي، ولا أحبّ أن يستمر.

ثمّ توقف وقد بُحّ صوتُه، فسألته والدموعُ البريئة تطفر من عينيَّ:

- ماذا تعني؟

- يؤلمني أنّ الأمير قد أعْجبَ بكِ، وأنّك من أجْل هذا الإعجاب تسارعين إليه، ناسيةً نفسك وزوجَك ومهملةً احترام شخصكِ، جاهلة أنّ ذلك يؤلم زوجكِ.. وهاأنتِ تتقدّمين إليَّ متحدثة عن التّضحية التي تقومين بها من أجلي، وبهذا تَعنين أن تقولي: "إن تقديمَ نفسي إلى سموّ الأمير شرفٌ عظيم ومَدْعاة لسروري النفسي، ومع هذا فإنّي أضحّي بكل ذلك".

وكان كلّما تمادى حديثُه ازدادَ غضبه وذهولُه، وازداد صوتُه خشونة وارتفاعًا وقسوة، لم أرَه ولم أكن أفكّر أن أراه هكذا.

اندفعَ الدمُ إلى قلبي وابتدأت أخاف، ولكني أحسستُ في أعماق نفسي أنّني لم أرتكب ما يدعو إلى الخجل، ولقد دفعتني كبريائي المجروحة إلى الانتقام منه؛ فقلت:

- لقد كنت أتوقّع هذا منذ أمدٍ طويل.. ها.. استمر.. استمر..!

فراح يقول:

- ماذا كنتِ تتوقّعين؟ لست أدري، ولكنني كنت أتوقّع ما هو أسوأ من ذلك، إذ كنت ألاحظكِ يومًا بعد يومٍ تأخذني بنصيب من هذه الجهالات والمزاعم التي تزخر بها المجتمعات الحمقاء، ولقد انتهى كلّ شيء، لم أحس طول عمري بالعار والألم اللذين أحسّهما الآن، الألمُ من أجل نفسي حينما تفري صديقتك قلبي بأظافرها، وهي تتحدّث عنْ غيرتي! علام أغار؟ وممّن؟ مِن رجل لم أشاهده ولم تنظريه بعد؟ ومعَ هذا فأنتِ ترفضين أنْ تفهمي كلامي وتتقدّمين إليَّ بهذه "التضحية" من أجلي، وأيّة تضحية؟! إنني خجلٌ من أجلك، من أجلِ هذا العطف.. تضحية!..

وراحَ يكرّر هذه الكلمة مرارًا، فقلت في نفسي: "إذًا، هذه هي سلطة الزّوج التي تجيزُ له أن يسبّ ويمتهنَ زوجة كاملة الخلق بريئة، لتكنْ حقوق الزوج هكذا، ولكنّني لن أخضع لها".

أحسسْتُ بالدمِ يزايل وجهي، وبأنفي يرتعش، وأنا أقول:

- لا! لنْ أضحي بشيء مِن أجلك، سأذهب إلى الحفلة يوم السبت دون تردّد". فصاح في نوبةِ غضبٍ متدفّقة:

- وأتعشّم أنكِ ستنعمين بها، ولكنْ هذا ينهي ما بيننا، ولن تمزقي فؤادي بعد ذلك أبدًا! لقد كنت مجنونًا حينما....

ولكنّ شفتيه ارتعشتا، وقاوم بمجهودٍ عظيمٍ إتمامَ هذه الجملة. لقد خفتُ منه، وكرهتُه في هذه اللحظة، كنت أحبّ أن أقول له كلامًا كثيرًا أعاقبُه به على سِبابه، ولكنّني كنت أفقدُ وقاري وهدوئي، لو كنتُ فتحت فمي. وغرقتُ في دموعي، لم أحرْ جوابًا وانصرفت من الغرفة، ولكن حينما انقطعَ عن بلوغ أذني وقْعُ أقدامه، راعني جدًّا ما فرطَ منّا، وخِفت أنّ العقدة التي بنَتْ سعادتي أوشكتْ أنْ تنحلَّ إلى الأبد، وفكّرت في العودة إليه.

ولكنّي حرْتُ عند ذلك، وقلت في نفسي: "هل هو هادئ الآن بحيث يفهمني، ويصغي إلى قولي بتعقّل!؟ هل سيتحقّق كرمَ عنصري وطيبَ أخلاقي؟ وماذا يحدثُ لو عدَّ حزني مجردَ ادّعاء؟ أو لو أعتقد أنّه محقّ في تصرفاته كلها، وأنّه يعفو عني ويسامحني كرمًا منه؟ ولماذا؟!

أجل.. لماذا يسبّني وينهرني في قسوةٍ وهو الرجل الوحيد الذي وهبْتُه قلبي؟"

لم أتوجّه إليه، ولكنْ ذهبت إلى غرفتي، حيث بقيت مدة طويلة أئنّ وأصرخ، واستعدتُ - في غضب - كلّ كلمة من كلمات محادثتنا، وعند ذلك فقط تذكّرت الإهانةَ الصارمة التي وُجهت إليه. وفي المساء، نزلتُ لتناول الشاي، وقابلتُ زوجي في حضور صديقة كانت مُقيمة عندنا، وبدا لي أنّ هوّة سحيقة قد قامت فيما بيننا منذ

اليوم، وسألتني صـديقتُنا متـى سـنرحل، وقبـل أن أتمكّـن مـن الجـواب، قـال زوجي:

- يوم الثلاثاء، سنضطرّ للبقاء من أجل حفلة الكونتيس (ي).

ثمّ التفت نحوي، وسألني:

- أعتقد أنكِ تصمّمين على حضورها.

لقدْ أخافتني نبرتُه الباردة، فنظرت إليه نظرةً جامـدة، لقـد كانـت عينـاه مصوّبتين نحوي في نظرةٍ قاسية مترفعة، فأجبته:

- نعم.

ولمّا انفردنا ذلك المساء، تقدّم نحوي ومدّ يدَه، ثمّ ابتدرني قائلًا:

- أرجوكِ أن تنسَي كلّ ما بدرَ مني هذا الصباح.

وعنـدما أمـسكت يـدَه لمعـتْ بـسمة عـلى شـفتي، واغرورقـت عينـاي بالدّموع، ولكنّه سحبَ يدَه وذهب إلى كرسي كبير، وجلس بعيدًا عنـي، كـما لو كان يتحاشَى الإقدام على منظرٍ عاطفي قوي.. فتعجّبت وتمتمْتُ: "هل يـا ترى لا يزال يعدّ نفسه محقًّا؟" ومع ذلك فقدْ كنت على وشْكِ أن أصرّح لـه أنّنا لن نذهب إلى الحفلة، ولكنّ الألفاظ ماتتْ على شفتي قبـل أن ألفظهـا، فقال:

- يجب أن أكتبَ إلى أمي بتأجيلنا موعدِ رحيلنا حتى لا تقلق.

فقلت:

- ومتى تحبّ أن ترحل؟

فأجاب:

- يوم الثلاثاء، بعد الحفلة.

فقلت:

- أحبّ ألّا يكون ذلك من أجلي.

قلت هذا، وأنا أنظر في عينيه، ولكنّ عينيه كانتا تنظران في جمود.. لم تقولا شيئًا، ولقد كنت أحسّ كما لو كانتا تحت قناع.

بدا لي أنّ وجهه أصبح على حين غرّةٍ وجْهَ رجلٍ عجوز متهدّم، ذهبنا إلى الحفلة، ووجدنا الناسَ هناك ينتظروننا، ويحبّون أن ينشئوا علاقاتٍ معنا، ولكن كمْ كانت دهشتي عظيمة حينما وجدتُ هذه العلاقات تختلف اختلافًا بيّنًا عن العلاقات الأولى.. كنت مع سائرِ السيدات حينما تقدّم الأمير مني، فوجدت مِن المناسب أن أقف حتى يستطيع أن يتحدّث إليَّ، وعندما وقفتُ وقعتْ عيناي على زوجي، كان يصوّب بصره نحوَه من الجانب الآخر للقاعة، ثمّ أشاحَ بوجهه.. لقد طاف بي طائفٌ من الخجل والألم، واحمرّ وجهي منَ اضطرابي حتى غمرَ الدّمُ وجهي وعنقي، ورآني الأميرُ على هذه الحال، ولكنّني كنت مضطرّة إلى الوقوف والإصغاء إلى كلامِه، وسرعان ما انتهتْ

محادثتنا بتبرّمي من محادثته، ودار الحديثُ حول المرقص السابق، ثمّ سألني أين سأمضي الصيف المُقبل، إلى غير ذلك.. وعندما تركني أظهرَ رغبتَه في التعرّف إلى زوجي.. ورأيتُهما يتقابلان ويبدءان الحديثَ في الجانب الآخر من القاعة، لا ريب أنّ الأمير كان يتكلم عني، لأنّه ابتسم في خلال حديثه وهو ينظر تجاهي.

وفجأة، احمرَّ وجه زوجي، وانحنى انحناءةً قصيرة ثمّ ترك الأمير دون استئذان، فاحمرَّ وجهي كذلك.. لقد خجلت من الطابع الذي رسمته أنا وزوجي في ذهن الأمير، وظننتُ أنّ القوم لاحظوا خجلي عندما قُدِّمتُ إليه، وصلابة زوجي وخشوتنه وقت لقائه...

أوصلتني الأميرة (د) إلى المنزل، وفي الطريق تحدّثت إليها عن زوجي، لقد عيَّل صبري وبلغتْ روحي الحلقوم، أخبرتها بكلّ ما حدثَ بيننا هذا الصباح بخصوص تلك الحفلة المشئومة، وقالت تهدّئني أنّ مثل هذا الخلاف شائعٌ بين الأزواج، ولا أهمية له على الإطلاق، إذْ لن يخلف بعدَه أثرًا، ولقد صرّحت لي بوجهة نظرها في أخلاق زوجي.. قالت إنّه أصبح جامدًا رجعيًّا، ووافقتها على ذلك.

ولكنني حينما انفردتُ بزوجي أخيراً، لاحظت أن الحكمَ الذي وقعته عليْه يثقلُ كاهلي.. أجل، أحسستُ أنّ الهوّة التي قامت فيما بيننا تزدادُ انفراجًا.

لفصلُ الثالث

ومنذ ذلك الحين داخلَ حياتنا، حدثَ تغييرٌ كبير في علاقات كلّ منا نحـو الآخر، لم نستشعرْ بعد تلك السعادة التي كنّـا نمـرح في بحْبوحتهـا مـن قبـل، وكنا لا نتحـدّث فنطيـل الحـديث إلّا في حـضور شـخصٍ ثالـث. وحيـنما كـان الحديثُ ينتهي إلى الحياة الريفية الخاملة أو إلى الحياة العاطفية في المدينـة؛ كنا نشعرُ بقلق وسآمة، ويشيح كلّ منّا بوجهه. كنـا نعـرف أنّ هـوّة سـحيقة تفصلُ ما بيننا وكنا نخاف تخطّيهـا، وأصـبحت أعتقـدُ أنـه مُتعجـرف متكـبّر، ورأيت من واجبي أنْ أتجنّب إثارة نقطةِ ضعفه، وكان هو مِـن جهتـه يعتقـدُ كذلك أنني أبغضُ الريف وأتوقُ إلى حياة الملاهي والاجتماع، وأنّه يجب عليه ألّا يحتكّ معي في مناقشة هذا الموضوع. وخلاصة القول، إنّنا تجنّبنـا المحادثـات الصريحة في مثل هذه الموضوعات، وصار لكلٍّ منّـا حكـمٌ سيء عـلى صـاحبه، لم يعدْ يعتبر الواحد منّا صاحبَه أحسن مَخلوق في الوجـود، بـل صـار يحكـمُ عـلى رفيقه في سرّه، ويحكم على أخلاقِه بالقياس إلى الناس الآخرين. ومرضتُ ولزمْـتُ الفـراش قبـلَ أن يغـادر "بيترسـبرج"، وبارحنـا المدينـة إلى منـزل في الـضّواحي، ومنْه سـافر زوجـي وحـدَه ليلحـق بوالدتـه في "نيكولـسكو". وكنـت - في ذلـك الوقت - بحيث يمكنُني الرحيل معه، ولكنّه ألـحَّ عـليَّ في البقـاء محافظـةً عـلى

صحتي، بيدَ أنني علمت أننا ربّما لا نكون سعيدين في حياتنا في الريف، لذلك لم أعارضْه كثيراً، وسافر بمفرده فشعرتُ بالركود والوحدة في غيابه، ولمّا عاد رأيت أنه لم يضفْ إلى حياتي ما كان يُضيفه فيما مضى، كنت فيما مضَى أحسّ بالخالجة التي تمرّ في خاطري كأنها جريمة حتى أفضي بها إليه، كانت كلّ حركةٍ وكلّ كلمةٍ منه تبدو آيةً من آيات الكمال!، وكان كلّ منّا يضحك طربًا لدى رؤية الآخر، ولكن هذه العلاقات تغيّرت واختفت دون أن نحسّ خفاءها، ولقد أصبحنا نرضى هذه الحياة، وصار كلّ واحدٍ منّا ينظر إلى زميله دون ارْتباك. وقبل أن ينسلخ العام، توارت نوباتُه الصبيانية معي، واختفى حنانُه الذي طالما حيّرني، وانتهت تلك النظرات الثاقبة التي غالبًا ما كانت تبهجني، وتلك الصلوات البريئة التي كنا نتضامن في تأديتها علانية، ثمّ لم نعدْ نتقابل كثيراً. كان يتغيّب على الدوام دون أنْ يخاف أو يأسفَ لفراقي، وكنت دائمًا أغشى المجتمعاتِ حيث لم أكنْ في حاجة إليه.

لم نعدْ نتعارك بعد، وحاولتُ أن أرضيه؛ فكنت أحملُ له أطيب الأماني، وتظاهرنا بالحبّ، وكنت حينما نخلو إلى أنفسنا لا أستشعرُ السّرور أو اللّذة في قربه، فكان يبدو لي كما لو كنت مُنفردة.

لقد تحقّقت أنه زوجي وليس غريبًا عني، رجل طيب، قريب إليَّ، مألوف لديّ كنفسي، واعتقدتُ أنّني أفهم ماذا يريد أن يقول وكيف يحاول أن ينظر، لم أكنْ أنتظر منه شيئًا. بالاختصار، لقد كان زوجي وكفى! وبدا

لي أنّ الأمور يجب أن تسير هكـذا دونَ أن تقـوم فـيما بيننـا علاقـاتٌ أخـرى. وحيـنما بـارح المنـزل، شـعرت بالوحـدة والخـوف، وأحسـستُ بالحاجـة إلى مؤنس، فلمّا عاد إليَّ أسرعت إليه وارْتميـتُ بـين ذراعيـه، بيـدَ أنـه بعـد مـضي ساعتين، نسيت ذلك السرور، ولم أجد ما أستطيعُ أن أقوله، لا أنكرُ أنني كنت في بعض لحظاتِ الهدوء والودّ أشعرُ ببعض الخطأ وأحسّ بالألم يحزّ في قلبـي، ويبدو عليَّ كما لو كنـتُ أقـرأ نفـسَ ذلـك في عينيـه، لقـد كنـت أحـسّ برقّـة محدودة.. لم أقوَ، ولم يقوَ هو كذلك على تجاهُلها، ولقد كان يحزنُني ذلـك في بعض الأحيان، ولكني لم أكنْ لأشغل بـالي ووقتـي بهـذه الأمـور؛ إذْ كنـت قـد اشتهرتُ في الملاهي التي تحْتاطني، حتى ملكت الحياةُ الاجتماعيـة التقليديـة التي عرفتها أخيراً كلّ عواطفي، فلم أطقِ الوحدة، وخفتُ أن تـضيع مكـانتي التي أحرزْتها في المجتمعات. وعلى ذلك، فقد أخذت أنفقُ يـومي مـن مطلـعِ الشمس إلى آخرِ الليل في الأندية والمجتمعات، وعند بقـائي في المنـزل لم يكـن وقتي تحتَ تصرفي، وكان يبدو لي ذلك التّصرف إمّا نشوة وإمّـا جنونـًا وغبـاءً، ومع ذلك فقد بدا لي أنه يجبُ أنْ أنفق وقتي على هذا المنوال!

وهكذا مرّت أعوام ثلاثة، لم تتغيّر فيها علاقتنا، وبدا لنا أنها أخذت شكلَها الثابت بحيث لا يمكن أن تتقدّم أو تتـأخر، ولـو أنّ حـادثين مهمّـين حـدثا في عائلتنا في تلك الأثناء، إلّا أن أحدهما لم يقـوَ عـلى تغْيـير مجـرى حيـاتي. كـان هذان الحادثان هُما مولدَ طفلي الأول، وموْتَ "تاتيانا سيميانوفنا".

أخذ شعورُ الأمومة يتملّكني أول الأمر بشكلٍ غريب، وأحـدث في زوجـي عاطفةً وشعورًا لم أعرفْ لهما كنْهًا، واعتقدت أن هذا مبعث حياة جديدة لي، ولكن حينما تمكّنت من الخروج أخذ هـذا الإحـساس يـضعفُ ويـذوي إلى أنْ أصبح عادةً مجردة، وواجبًا محتّم الأداء، أمّا زوجي فعلى النّقـيض منـي بَقِـيَ وديعًا رقيقًا محبًّا لأسرته، وحوّل إلى الطفل كلّ سرورِه ورقّته القديمة. وكمْ من ليلةٍ كنت أذهب إلى الطفل في فراشه لأشير عليه إشارة الصليب قبل خروجي إلى حفلة راقصةٍ فـأرى عنـده زوجـي ينظـرُ إليَّ بعينـين قـويّتين، نظـرة حنـان وحبّ فكنت أخجلُ وأهتزّ من مظهري الجامد. وساءلت نفـسي إذا مـا كنـت أسوأ من النساء الأخْريات، وكنت أقول: "ولكنّي ماذا يمكنني أن أصنع؟.. إنّني أحبّ طفلي، ولكن هذا لا يجعلني أعذّب نفسي بالجلوس إلى جانبه طـوالَ النهار، ولا شيء يدعوني إلى ادّعاء غير الذي أحسّ بـه". لقـد أسـفَ زوجـي أسـفًا عظـيمًا عـلى فقـدان أمـه، وقـال إنّـه يـرى مـن المـؤلم أنْ نعـود إلى "نيكولسكو"، أمّا عني أنا فـإنّني بـالرّغم مـن حـزني عليهـا وشـفقتي عـلى زوجي؛ فقد كنت أرى الحياة في ذلك المنزل أسهلَ وأهـدأ بعـد وفاتهـا. لقـد مَضينا أغلب هذه الأعوام الثلاثة في المدينة، وذهبـتُ مـرّة إلى "نيكولـسكو"، وأقمت بها شهرين، وفي السنة الثالثة سافرنا إلى الخـارج وأمـضينا الـصيف في "بادن". كنت - حينئذٍ - في الحادية والعشرين، وكانت حالتنا الماليّة على مـا

أعتقد مضمونة، ولقد كان يخيّل إليَّ أن كلّ من رآني كان يحبّني، وكانت صحّتي حسنة، بل وكنت أكثرَ سيدات "بادن" أناقة.. كان الجوُّ لطيفًا فتمتّعت بالجَمال والرّقة، وبالاختصار كنت في غاية من السعادة والهدوء.

لم يكن لديَّ رغائب أو أماني معينة، فقد كان يبدو لي أن حياتي تزخرُ بكلّ جميل طيّب، وأنّ ضميري مستريح هادئ، ولم أفضّل أحدًا من الرجال الذين زارونا هذا الموسم في "بادن" على الآخرين، ولا حتى البرنس (ك) الذي كان مهتمًّا بأمري معنيًّا بي، ولكنّ واحدًا مِن بين هؤلاء المُعجبين استطاعَ بجسارته أن يعلن إعجابه بي، وأن يتفوّق على الآخرين.. كان ذلك الرجل "مركيزًا" إيطاليًّا، عرفَ كيف ينتهز كلّ فرصة ليكون معي.. يراقصني، يركب معي، ويقابلني في المنتدى، وكان لا يهدأ أبدًا عن إعلان إعجابِه بمحاسني، وكثيرًا ما رأيتُه من النافذة يتلكّأ حول الفندق الذي نزلنا به، ولقد كان يزعجني تحديقُه المستمرّ نحونا، ويجعلني أحمرّ خجلًا وأختفي، لقد كان شابًّا جميلًا مهذّبًا، وأخيرًا كان يشبه زوجي بابتسامتِه وتعبيره بحاجبيْه، ولو أنه كان يبزّه بهما، لقد لمسَ فؤادي بإعجابه، ولو أنّني كنت ألمسُ الحيوانية في عينيه، وشفتيه، وذقنه الطويلة، على نقيض ملامحِ زوجي الروحيّة النبيلة المخلصة، لقد كنت أحسبُه يحبني حبًّا عاصفًا، وغالبًا ما كنت أفكر فيه مُفتخرة به، وكنتُ كلّما حاولت أنْ أنهاه عن نظرته الغرامية إليَّ بعبارة مهذبة؛ أراه يتسخّط هذا الرأي مني، ويتابع مغازلتَه

وشرحَ عواطفه، وعلى هذا فقد خفتُه، وكنت أفكّر فيه ضدّ عزيمتي، عرفَه زوجي، وعاملَه من دونِ جميع معارفنا وأصدقائنا ببرودٍ واحتقارٍ عظيمَيْن.

وعندما شارف الموسم الانتهاء، مرضت ولزمتُ الفراش أسبوعيْن. وفي الليلة الأولى عقب إبلالي، حينما خرجت لسماع الموسيقى، علمتُ أنّ "الليدي" (س) وهي امرأة إنجليزية شهيرة بجمالها قد وصلتْ في غيابي، وكان الجمهور يتوقّع وصولها من وقتٍ إلى آخر. لقد احتُفِيَ بإبلالي واجتمعت جمهرةٌ حولي، بيدَ أن الملتفّين بـ "الليدي" كانوا أكثر عددًا، لقد كانت هي وجمالها موضوعَ أحاديث الناس فيما بيننا، ولمّا أبصرتها ألفيتها جميلة حقًّا ولكنّ اعتدادَها بذاتها وجَمالها لم يبدُ لي لائقًا ومُساغًا، ولقد جاهرت بهذا الرأي. وفي هذا اليوم فقط، ابتدأت أحسّ أن كلّ ما كان مسلّيًا جميلًا آض سمجًا غثًا، ونظّمت "الليدي" (س) رحلة إلى القصر المخرب في اليوم التالي فصمَّمْت على الذهاب، وذهبَ قومٌ كثيرون. ومن هذا التاريخ، راح رأيي في "بادن" ينقلب رأسًا على عقب، لقد أصبحت كلّ الأشياء وكلّ الناس في رأي عيني؛ مُتعبين. أحببْتُ أن أصيح وأصرخ، أحببْت أن أعودَ إلى "روسيا"! لقد كان في بدني روحٌ شرّيرة، لم أعدْ أظهر في المجتمعات مُعلنة أنّ صحّتي لا تقوى على ذلك، وكنت لا أخرج إلّا في الصباح منفردة لأشربَ المياه المعدنية، لا أصطحبُ سوى مدام (م)، وهي سيدة روسيّة كنت أصحبها غالبًا في جولاتي

بين ضواحي المدينة، وكـان زوجـي غائبًـا إذْ سـافر إلى "هيـدلبرج" منـذ مـدة، معتزمًا أن نعود إلى "روسيا" حينما يتمّ شفائي، وكان يزورني غبًّا أثناء وجـودي بـ "بادن".

في ذات يـوم، وقـد اسـتقلت "الليـدي" (س) بجماعتهـا إلى رحلـة للـصيد والقنص، خرجت صحبةَ مدام (م) بعد الظهر قاصـدين القلعـة، وبيـنما كانـت عجلتُنا تسير ببطء في الطريق المتعرّجة المحوطة من الجانبيْن بأشجار الكـستناء القديمة عرَّجنا على الريف المجاور لـ "بادن"، والشمس الغاربة تغمرُ من حولنـا الحقول، أخذت محادثتنا نحوًا جديًّا لم نطرقْه مطلقًا من قبل، لقد كنت أعـرفُ رفيقتي منـذ زمـنٍ طويـل، ولكنّهـا ظهـرت لي الآن في نـور جديـد رائـع، سـيدة طويلة القامة، مثقفة، سريعة الخاطر لا يستطيع المرء أن يتحدث إليها دون أن يحتاط ويستجمع شتات تفكيره، من السيدات اللواتي يتشرّف المرء بـصداقتهنّ، تحدّثت عن علاقاتنا الداخلية، وعـن أولادنـا، وعـن جفـاف الحيـاة في "بـادن"، حتى شعرنا بشوق وحنين عجيبَيْن إلى "روسيا"، وريفها الجميل.

ولمّا دخلنا القلعة، كنا لا نزال تحت تـأثير ذلـك الـشعور القـوي، وظفرْنـا بالظلّ والهواء العليل داخل الأسوار، ورقـصتِ الـشمسُ الغاربـة فـوق المـدن والأطلال، كنّا نسمع وقْعَ الخطا والأصوات، جلسنا في النهاية وشاهدنا مغـربَ الشمس في سكون وجلال، أخذت الأصواتُ ترتفع، وأظنّ أنني سمعت اسمي.

أصغيتُ ولكنْ عبثًا حاولتُ استعادة كلّ لفظ، عرفت الأصوات..

لقد كان المتكلّمان "المركيز" الإيطالي وصديقٌ فرنسي له كنت أعرفُه من قبل، كانا يتحدّثان عني وعن "الليدي" (س)، وكان الفرنسي يتحدّث عنّا كمتنافستيْن في ميدان الجَمال، ولقد دفعتْ كلماتُه الدمَ بسرعة في عروقي، وراح يشرحُ في إسهابٍ محاسنَ كلّ منا، قال إنّني أمّ بينما "الليدي" (س) ما تزال فتاة في التاسعة عشرة، ورغم هذا فأمْتاز عنها بشاعريتي، أمّا مُنافستي فلَها سحنة أجْمل، وأضاف إلى ذلك قوله إنّني سيدة كبيرة أمّا الأخرى فليست في الواقع سوى واحدةٍ من هاتيك الأميرات المجهولات اللواتي يكثرُ عددُهن هنا في هذه الأوقات. وختمَ كلامه قائلًا: إنّني كنت حكيمةً لعدم محاولتي الاتصال بـ "الليدي" (س) وإنّني قد دفنت سيرتي في "بادن" منذ حضورها فيها، ثمّ أضافَ إلى ذلك قوله عني، وهو يضحك ضحكة قويّة رنّانة: "إنّني آسف من أجلها".

- إذا رحلت فسأتبعها.

وصلتني هذه الكلمات في لهجة إيطالية، فضحك الفرنسي ثمّ قال:

- يا لك من رجل سعيد ما تزال تستأهل الحبّ والعطف.

فقال الصوت الآخر:

- العطف!؟

ثمّ سكت لحظة، وعاد يقول:

- إنّني في حاجة ماسّة إليه، لا يمكنُني أن أعيش من دونه، أهم ما يجبُ أن يعمله المرء هو أنْ يجعل حياته قصة حبّ، ولا يمكن أن تقف قصةُ الحبّ عندي في منتصف الطريق، وسأمضي في طريقي حتى النهاية.

فقال الفرنسي:

- أتمنّى لك حظًّا سعيدًا يا صديقي.

ومالا ناحية.. وانقطعت الأصوات، ثمّ سمعنا وقْعَ خطاهما على الدّرج، وبعد دقائق خرجا علينا من الباب الجانبي، لقد دهشا كثيراً لرؤيَتنا، وصعد الدمُ إلى رأسي حينما دلف منّا "المركيز" وشعرت بخوفٍ عظيم لدى مغادرتنا القلعة وسلّمته ذراعي، لم أقوَ على الرفضِ وذهبنا إلى العربة ومِن خلفنا مدام (م) وصديقه، ولقد كنت أعترفُ بيني وبين نفسي أنّه صرّح في ألفاظه بما كنت أكنّه في ضميري، ولكنّ صراحةَ الرجل الإيطالي أذهلتني للغاية، لقد كرهتُ أن أراه مُلتصقًا بي هكذا، راح يتحدّث عن المنظر الجميل، وعنِ السرور الذي شملَه من اللقاء الفجائي.. إلى غير ذلك، ولكنني لم أكنْ ألقي إليه ذهني، لقد كانت جميعُ أفكاري مع زوجي، مع طفلي، مع ريفي الجميل.. وكنتُ أفكّر في الإسراع بالعودة إلى حجْرتي المنعزلة في فندق "ديبادم" كيْما أتمكّن من التفكير في عزْلتي الهادئة بالشعور الجديد الذي غمرَ قلبي، ولكنّ مدام (م) كانت

تسير الهوينى، ولا يزال أمامنا مسافةٌ طويلة حتى العجلـة وزمـيلي بـدا عليـه التلكّؤ، ولكني أسرعت خطاي وذهبت مدام (م) ناحيـة، وانفـردتُ بـه برهـةً فشعرت بوجلٍ عظيم، وكان يـشدّد الـضغط عـلى سـاعدي، ولكنـي قلـتُ لـه محاولةً إفلات ذراعي من ذراعه: "إذا سمحت!" ولكنّ العقد الـذي في نحـري اشتبكَ بزرارٍ من أزرار معطفِه فانحنى نحوي وشرعَ يحلّـه، ولمـست أصـابعُه ذراعي فبعثتِ اللمسةُ شعورًا جديدًا مزيجًا من الرّعب واللّذة.

نظرتُ إليه محاولةً بكلّ صلابتي أن أوقف هذا التدرّج الخاطئ منه عنـد حدٍّ، ولكنّ نظرتي لم تعبّر عنْ غير الخوف، وكانت عيناه الزئبقيّتان تحـدّقان في عنقي وصدري، وكانت يـداه تـضغطان ذراعـي مـن فـوقِ معْـصمي، وقالـت شفتاه المُنْفرجتان إنّه يحبّني وإنّني كنت كلّ شيء له في الدنيا، وكانـت هـذه الشفاه تقترب وتقترب، وهاتان اليدان تـضغطان عـلى يـديَّ بـشدّة فتلهِبَـاني، وجرت في عروقي حمّى عجيبـةٌ، وأُظلـمَ بـصري وارتجفـت شـفتاي واحتُبِـستِ الكلمات في حنجرتي، وشعرتُ بقبْلـة تُطبـع عـلى خـدي عـلى حـين غـرّة منـي، فاهتزَزْت من فرعيَّ إلى قدميَّ وصرتُ باردة كالصّقيع، وبقيت ساكنة محمْلِقـة فيه، عاجزةً عن التحرّك أو الكلام، خائفةً مُنتظرة أن ينتهي كـلّ شيء في لحظـة، ولكنّها كانت لحظة قاسية عنيفة... في ذلك الوقت القصير، رأيته عـلى حقيقتـه بجبهتِه المُنخفضة المُنبسطة التي تشبه جبهةَ زوجـي تحـت قبّعـة مـن القـش، وأنفِه الدقيق الطويل، وشاربِه الطويل المنظم، ولحيتِه القصيرة وخدّيـه النقيَّـيْن الحليقـين، ورقبتِـه الـسمراء؛ بيـدَ أنّنـي كرهتـه وخفتُـه، إذ تطفّـل عـليَّ وكـان

فضوليًّا.. ومع ذلك، فالعاطفة المتأجّجة في صدر هذا الأجنبي المكروه وجـدتْ لها صدًى قويًّا في صدري، وشعرت برغبـةٍ جائعـة في الاستـسلام لقُـبُلات هـذا الفمِ الجميل، وبضغط هذين الـذّراعين بعـروقهما الرقيقـة وأنـاملهما المُحَـلّاة بالخواتم. كنتُ على وشْك أن أنْخـدع فـألقي نفـسي بـين ذراعـيّ هـذه اللّـذة الغريبة، قلت في نفسي: "أنا في غايةٍ من الشقاء، ولتنفجر زوابعُ الشقاء كـيفما شاءت على رأسي".

ولفَّ ذراعه حولي وانْحنى فوقي، قلت في نفسي: "هذا حسنٌ، لتطغى عليَّ الخطيئة، وليغمرني العـارُ والخجـل"، وهمـس في صـوتٍ شـبيه بـصوتِ زوجـي "أحبك"، وسرعان ما فكّرت في زوجي، وطفلي، كشخصيْن عزيزين قـد فـصلتهما من دائرة تفكيري.. وفي نفس اللحظة، سمعت مدام (م) تناديني مـن الخلـف، فراجعتُ نفسي، ونزعـتُ يـدي مـن يـده دون أنْ أنظـر إليـه، وهُرِعـت إليهـا.. نظرتُ إليه فقط عندما أخذنا مِقعدينا من العربة، فرأيته يرفعُ قبّعته.

كانت حياتي تبدو محطّمة، والمستقبلُ يبدو مظلمًا يائسًا، والماضي شـديدَ الحُلوكة! ولمّا تكلّمت مدام (م) كانت تعني أنْ تقول شيئًا عني، وظننْتُ أنّهـا تتحدّث بعامل الشّفقة، وتخفي الاحتقار الذي أثرتـه في نفـسها، كنـت ألمـسُ هذا الاحتقار في كلّ كلمة لفظت بها.

لقد أحرقَ عارُ هذه القبلة خدي، وكان تفكيري في زوجـي وطفـلي يخْزني وخزًا مريعًا.. ولمّا انفـردت بنفـسي في غرفتـي، حاولـت أن أفكـر

ثانية في موقفي، ولكنّني خفتُ من وحدتي، وقمت دون أن أتناول الشاي الذي جُهِّز مِن أجلي، وانطلقت كالمحمومة إلى المحطّة، وركبت القطار المسافر إلى "هيدلبرج" كيما ألحقَ

بزوجي.

وجدتُ أماكن خالية لي ولوصيفتي، ولمّا سار القطار وهبَّ الهواءُ من النافذة على وجهي، كنت أزدادُ ذهولًا، لقد مرّت على ذهني ذكرى الأيام الأولى من زواجنا حتى رحيلنا إلى "بيترسبرج" لأول مرة، وعند ذلك هتفَ هاتفٌ في نفسي بالإسراع في العودة إلى "نيكولسكو" حتى ننفّذ برنامجنا القديم، ولأول مرة سألت نفسي: "أيّة سعادة حصلَ عليها زوجي من وصولنا إلى "بيترسبرج"!؟ أحسستُ أنّني أسأتُ معاملته، ولكنني رحتُ أسائل نفسي: "ولماذا لم يوقفْني عند حدّ؟ لماذا كان يصطنعُ شعورًا أو عواطف غيرَ شعوره وعواطفه الحقيقية؟ لماذا كان يتحاشى التفصيلات، ويتجنّب الشروح؟ لماذا كان يسبّني؟ لماذا لم يستعمل نفوذَ حبّه للتأثير عليَّ؟ هل هو يكرهني؟"

وسواء كان يصحّ أن يلام أو لا يصح، فقد كنت لا أزال أحسّ بقبْلة الغريب على خدّي، وكلّما اقتربنا من "هيدلبرج"، وضحتْ صورة زوجي في قلق نفسي: "سأطلعُه على كلّ شيء، وسأمحو كلّ ذنوبي بدموعِ توبتي، وسيعفو عني دون شكّ، ولكنني لم أدرِ ماذا كنت أعني.. ولم أعتقد في صميمِ نفسي أنه سيعفو عني".

وعندما دخلت غرفة زوجي ورأيتُـه جامـدًا، أحسـسْتُ في الحـال أننـي لا أقـوى عـلى التـصريح لـه بـشيء، وأنّـه لا شيء صـدرَ منـي يـستأهل الغفـرانَ والصفح منه، كان عليَّ أنْ أخفي في قلبي حزني الصامت، سألني:

- ما الذي قامَ في رأسك؟ لقـد كنـت صـمّمت عـلى الـذهاب إلى "بـادن" باكرًا، ماذا حدث لكِ؟

فأجبته مُسقطةً الرأس:

- لا شيء على الإطلاق. لن أرجع إليها. هيّا بنـا إلى الريـف، لنـسافر غـدًا إذا شئت.

صمتَ برهةً طويلة، ونظر إليَّ في أثنائها بانتباه، ثمّ قال:

- ولكنْ خبّريني، ماذا حدث لكِ!؟

فاحمرَّ وجهي خجلًا، وأسقطت نظراتي، فخالط نظرَه بريـقٌ مـن الغـضب المَمزوج بالألم، وخفتُ أن تـذهب بـه الظنـون بعيـدًا؛ ولـذلك قلـتُ محاولـة جهدي إتْقان الادّعاء والاختراع.

- لم يحدث لي شيء، ولكنْ فقط أحسستُ أننـي مُثقلـة الـنفس، متعَبَـة، وكنتُ أفكّر طويلًا في نظامِ حياتي، وفي برنامج حياتك، لقد أحسـستُ أنّـه مـن واجبـك أن تلـومني: لمـاذا نـسافر إلى الخـارج، حيـنما لا نطيـقُ ذلـك؟ إنّنـي أستحقّ اللّوم منذ بعيد، دعنا نرحلُ إلى "نيكولسكو"، ونبقى هنالك إلى الأبد.

فقال في برود:

- دعينا مِن هذه المواقف العاطفية يا حبيبتي، الرجوع إلى "نيكولسكو" فكرة جميلة؛ لأنّ المال قد شحّ في أيدينا، أمّا فكرة البقاء هناك "إلى الأبد" ففكرةٌ ماليّة بحتة، أنا أعرف أنكِ لا تطيقين البقاء هنالك، تناولي شيئًا من الشاي وأنت ترتاحين.

وقام يدعو الخادم..

لقد تخيّلت كلّ ما كان يظنّه فيَّ.. وخفت أن أصرّح له بما حدث، قلت لنفسي: "لن يقدر أنْ يفهمني"، ثمّ قلت له:

- يجب أن أذهبَ لأرى طفلي..

وتركتُ الغرفة، أحببتُ أن أنفرد بنفسي؛ لأصرخَ وأصرخ وأصرخ!..

الفصلُ الرّابع

عاد منزل "نيكولسكو" إلى الحياة بعد أن أُهملَ دهرًا، ولكنّ الكثير من خصائص الماضي انتهى وتلاشى، فقد ماتت "تاتيانا سيميا نوفنا"، وصرنا وحيديْن الآن، ولكننا وجدْنا هذا الانفراد لا يبعث على السرور، ولقد كان هذا الشتاء أسوأ ما مرّ بحياتي؛ لأنّ صحتي تأخّرت، ولم أعدْ إلى نشاطي السابق إلّا عقب وضعي طفلي الثاني.

كنت وزوجي لا نزال على النهج الذي اعْتدناه في "بيترسبرج".. كنا صديقين جافين في معاملاتنا، ولكن كلّ شيء في الرّيف من كراسٍ وأرائك وجدْران كان يذكر بما كان بيني وبينه من قبل، من عطف قدْ فقدْناه، لقد كان ما فصل بيننا أشبه شيء بخطيئةٍ لا تمحى، فكأنه كان يحاكمني، ثمّ يتظاهر بالتودّد إليَّ، ولكن لم يكن هنالك ما أسأله العفوَ من أجله. لم يعدْ يعطيني كلّ قلبه، ويصغي إليَّ كما كان يفعلُ فيما مضى، ولكنه في نفس الوقت لم يعطِه لمخلوقٍ آخر، كما لو كان لم يبقَ لديْه قلب، وكنت أظنّ في بعض الأحيان أنه يدَّعي هذا فقط ليؤمني، وأنّ الشعور القديم لا يزال حيًّا في صدره، وحاولتُ أن أستخرجَه منه ثانية، ولكنني كنت أخفق دائمًا، كان يتجنّب الصراحة، ويشكّ في إخلاصي، ويهزّ من أي مظهر عاطفي.. كنت أتلو في صوتِه

وفي وجهه: "ما جدوى الكلام؟ أنا أدرى بكلّ الحقائق، وأعرفُ ماذا على طـرفِ لسانك، وأعرفُ أنّكِ تقولين شيئًا ثمّ تعمَلين سواه" كنت أتألّم كثيرًا أوّل الأمـر من محبّته للصّراحة، أمّا اليوم فإنّني أفتشُ عن هذه الصراحة فلا أجدُها.

وكان يحدثُ لي في بعض الأحيـان أنّ أهـمّ بإخبـاره فجـأة أننـي أحبّـه أو أطلب إليه أن يعيدَ الصلوات معي، أو أن يصغي إليَّ وأنا أوقع على "البيـانو". وأخيرًا، زال سوءُ التفاهم الذي قام بيننا بفـضل قواعـدِ الآداب المنظّمـة التـي أصبحنا نتّبعها، كنا نعيش عيشتنا المنفصلة.. فهـو مُنهمـكٌ في أعمالِـه التـي لم أعنِ بالسؤال عنها مرّة، والتي لم أكنْ أميلُ إلى مُقاسمتِه إيّاها، في حين مضيتُ في حياتي السادرة، دونَ أن يسبّب له جهلي حزنًـا أو غـضبًا. وكـانَ الطّفـلان لا يزالان صغيرين بحيث لا يكونان عقدةً متينة فيما بيننا.

ولكنّ الربيعَ أتى، وجاءت معه "كاتيا" و"سونيا" لتمـضية الـصيف عندنا في الريـف، وكـان المنـزل في "نيكولـسكو" يُـرمَّم، لـذلك ذهبنـا لنعيشَ في منزلنا القديم في "يوكروفـسكو" حتـى يـتمّ ترميمـه، ولقـد تغيّر المنزل القديم: الـشرفة، المائـدة، و"البيـانو" في حجـرة الاسـتقبال الـضّاحية، ومخـدعي القـديم بـستائره البيـضاء وأحلامـي أيـامَ كنـت عُـذراء، تلـك التـي كـان يخيّـل إليَّ أنّي تركتهـا هنالـك، كـان في هـذه الحُجرة فِراشان: واحدٌ كنت أنام عليه، واليوم يقبع فيه ولدي الصغير

"كوكوشا" وأتوجّه إليه في المساء أشيرُ عليه إشارة الصليب، أمّا الفراش الثاني فكان أصغرَ من الأول، ومنه كان يبرز وجهُ طفلي "فانيا" بين لفائفِه، وكنت في أغلب الأحيان، حينما أنتهي من إشارة الصّليب هذه أقفُ في وسط الغرفة، فتحومُ حولي أحلامُ الشباب القديمة طافرةً من الجدران والستائر المحيطة، وتنطلقُ أصواتٌ قديمة تغنّي لي الأغاني التي كنت أغنّيها وأنا عذراء.. أينَ اختبأت هذه الخيالاتُ اليوم؟ أين مضتْ تلك الأغاني العذبة؟

تمنّيت كثيراً لو تعودُ عليَّ تلك الأيام السعيدة التي مرّت بي، وتحقّقت أحلامي الغامضة بها، ولكنّ تحقيقها كان عكسيًّا ضاغطًا، صعبًا لا خيرَ ولا فرح فيه، كان كلّ شيء لا يزال كما هو.. الحديقة التي نَراها من النافذة، العشب النّضر في الممرّ، المعقد الواقع خلف عرائس الياسمين، وأغنية البلبل عند المستنقع، والزهور والبراعم بعيْنها، والكونُ بنوره الباسم والقمرُ يضيء، بيدَ أنّ تغييرًا مريعًا عجيبًا قد وقع.

أيكونُ الجفافُ نصيبَ كلّ المفاتن العزيزة القريبة؟! ورحت أجلس في الرّدهة مع "كاتيا" كما كنّا نفعل في الأيام الخالية، نتحدّث عنه. ولكنّ "كاتيا" قد ازدادت شحوبًا وضعفًا، ولم تعدْ عيناها تشعّان السّرور والأمل، وإنّما تعبّران عن العطف، والأسى، والأسف.. لم نعدْ نحتدّ في مناقشاتنا، ولكنا كنّا نتحدّث عنه ونصدر أحكامنا عليه

في جفاف، وكنّا معًا كمتآمرين، ونتساءل كثيرًا عـن سـببِ هـذا التغـيّر المـؤلم. ومع ذلك، فهو لا يزال كما كان لولا خطٌ عميق عند حاجبيه وشعرات بيـضاء في مِفْرقيه، ولكنّ نظرته اليقظة العنيدة كانت دائمًا تحجبُها عني سحابة، وأنـا لا زلتُ المرأة التي عرفها، ولكن مجرّدة من الحبّ والـرّضى زاهـدة في الكفـاح من أجـل الحيـاة، لقـد أصـبح مـن الأمـور الخياليّـة الغريبـة عنـي أن أتعلّـق بواجباتي الدينية، أو أحبّ زوجي، أو أشعرَ بامْتلاء حياتي بالسعادة كـما كنـت أحسّ في الماضي، كنـت أعتقـدُ في المـاضي أنّ الحيـاة مـن أجـل الآخـرين هـي السّعادة الحقّة. ولكني صرتُ الآن أعتقدُ أن ذلك التفكـير غبـاءٌ وتـضليل، لِـمَ نعـيش مـن أجـل الآخـرين في حـين أنّ الحيـاة لا تجـذب إليهـا حتـى نفـس صاحبها؟ وأهملت الموسيقى جُملة منذ زيارتنا الأولى لــ "بيترسـبورج"، ولكـنّ الموسيقى القديمة و"البيانو" العتيد حفّزاني الآن إلى محاولة العزف ثانية.

كنتُ في ذات يوم مُتعَبة، فبقيت في المنزل منفردة، واصطحب زوجي "كاتيـا" و"سونيا" لرؤية المباني الجديدة في "نيكولسكو"، وكـانَ الـشاي قـد جُهِّـز، فهبطـتُ الدّرج وجلست أنتظرُ أوْبتَهم أمام "البيانو"، وفتحتُ أغنية "ضوء القمر" وشرعـتُ أعزفهـا، لم يكـن هنالـك مَـن يـراني أو يـسمعني، وكانـت النوافـذُ مفتوحـةً عـلى الحديقة، وتَماوجتِ النغمات العذبة في الحجـرة حزينـةً سـاكنة، وعنـدما أكملـت القطعـةَ الأولى اسـتدرتُ نـاظرةً إلى الزاويـة التـي طالمـا كـان يجلـس فيهـا

عندما أعْزف. لم يكنْ هنالك، ولكنّ كرسيَّه كان هناك، لم يُحـرَّك مِـن موْضـعه، وكنت أرى من النافذة زهرةً جميلة قد غمرها ضوءُ الشّمس الغاربة، وهبَّـت نسائمُ الغروب اللّطيفة من النوافذ، وتركتُ ساعدي عـلى "البيـانو" وغطّيـت وجهي بيديَّ، وجلستُ على هذه الحال أفكّر طويلًا، فاستعدتُ مُتألمةً المـاضي السعيد، ورحتُ أتخيّل المُستقبل المُظلم، ولكني كنتُ أعتقـدُ أنّـه لا مـستقبل لي، لا رغبات لي ولا أماني، ورحتُ أتمتِمُ مُرتَعبة: "أتنقضي حياتي حقًّا؟" ولكنّني رفعتُ رأسي وحاولت أن أنزعَ هذه الأفكار المـسمومة مـن ذاكـرتي، وشرعـتُ أعيد عزفَ القطعة الموسيقيّة، ثمّ صلّيت قائلة: "أي ربي! اعفُ عني إنْ كنـت أخطأت، وأعدْ إليَّ السعادة التي كنت أتمتّع بها، وعلّمني كيف أصـنعُ وكيـف أعيشُ منذ الآن".. وسمعتُ صوت عجلات على العشب، وأمامَ عتبة الدار، ثمّ سمعتُ الخطى العادية المألوفة تسيرُ على محاذاة الشّرفة ثـمّ تقـف، وحيـنما انتهيت مـن العـزفِ كانـت الخطـى خلفـي، وأحسـسْتُ بأناملَ تهـبط عـلى عاتقي.. قال:

- جميلٌ منكِ أن تفكّري في عزف هذه القطعة. فلمْ أحرْ جوابًا، قال:

- هل تناولتِ الشاي؟

فهزَزْت رأسي سلبًا دونَ أن أنظرَ نحوه، لم أكـنْ أحـبّ أن يلاحـظ أمـارات انفعالي، وتسامي عواطفي، قال:

- سيصلون سريعًا، لقد كان الجوادُ عنيدًا مُشاكسًا، ففضلًا المجيء مِن الطريق العلوي مَشيًا على الأقدام، فقلتُ وقد توجّهت إلى الشّرفة، آملة أن يتْبعني إليها:

- وإذن.. لننتظرْهما.

ولكنّه لم يتبعْني، بل سألَ عن الطفلين، ثمّ صعد إلى الطابق العلوي ليراهما، ولقد تقلّب فؤادي فأصبحَ يرى في حضوره، وفي صوته السّاذج الحنون سعادةً جعلته يعتقدُ أنه لم يفقدْ شيئًا، ماذا عساي أن أتمنّى بعد هذا؟ إنّه رءوف رقيق، زوج، طيّبُ الخلق، والدٌ رحيم، لم أعرفْ على التحقيق.. ماذا كنت أطلبُ بعد ذلك.

جلست في الشرفة، على المقعد الذي كنا نجلس فيه معًا لدى خطبتنا، وغربتِ الشمس، وابتدأت الدّنيا تُظلم، واستقرّت في الجوّ فوق المنزل سحابةٌ مِن سُحب الرّبيع المُمطرة، غيْر أنّ الأفق كان واضحًا مِن خلف الأشجار، يُنيره شفق الغروب، وابتدأت نجمة واحدةٌ تبعثُ بنورها مِن خلال الأفق. وكان شفقُ الغروب مغطّى بظلّ السحابة، كما لو كانَ ينتظرُ مطرَ الربيع الخفيف. كانت الريحُ ساكنة ولمْ تتحرّك ورقةٌ واحدة من ورق الأشجار، ولقد كانت رائحةُ الزّهور تفوحُ أقوى ما تكون في الحديقة والشرفة، كما لو كانَ الهواءُ كلّه مُشبعًا برائحة عطرِ الأزاهير التي كانت تبعثُ تارة قويّة، وطورًا ضعيفة حتى يودّ المرء أن يغمض عينيه وأذنيه ويشرب ذلك العطرَ طويلًا، وكانت شجيرات الوردِ التي لم

تزهر بعدَ ساهمة دونَ حِراك في وسط الحديقة. وكانت الضفادعُ تحيي حَفلاتها الغنائيّة فيما وراء الحديث قبل أن يدفعها المطرُ إلى المُسْتنقع، ولم يكـن يغطّـي على صوتها العّجاج شيء.. الـلـهم سوى خَرير الماء المتدفّق على بعد. ومن ذلـك الحين، راحت البلابل يدعو أحدُها الآخر، وكنتُ أراها تقفزُ قلقةً مـن غـصن إلى غصن، وحدث في ذلك الربيع أنّ بلبلًا شرعَ يبنـي عـشَّه تحـت النافـذة، ورأيتـه يطـير إلى جانـبِ الحديقـة الآخـر حيـنما دخلـت الـشرفة، وشرعَ يرسـلُ أغانيـه المسكرة مدّة ثمّ توقـف، حاولـتُ عبثًـا أن أهـدئ مـشاعري، لقـد كنـت أشـعرُ بالأسف والندم، ونزل من الطابق العلوي وجلسَ إلى جانبي وقال:

- أخاف أن تبتلّ ملابسهما.

فأجبته:

- نعم.

ثمّ جلسنا مدّة طويلة صـامتين، وهبطـت الـسحابة شـيئًا فـشيئًا دون أن تساعدَها الريح، وزاد سكونُ الجوّ وهدوءه، وفجأة سقطت نقطة مـن المطـرِ على الممَرّ المَرصوف، ثمّ ابتلّـت أوراق الـشجرة القريبـة ثـمّ هبطـتِ الأمطـارُ بغزارة في نقطٍ كبيرة، وسكتَ البلبل الغرّيـد كـما أُلجِمَـت الـضفادع النّاعقـة، بيدَ أنّ خرير المياه ما يزال يُسمَع من بعد، وراحَ طـائرٌ قـد اخْتبـأ بـين أوراقٍ جافّة على مَقْربة من الشرفة، يكرّر نغْمتين مُتَشابهتين، ونهضَ زوجي، فسألته محاولة إبقاءه:

- أين تقصد؟ الجوّ هنا رائعٌ جميل!

قال:

- يجب أن نبعث إليهما بمظلّة!

- لا تزعج نفسَك؛ فسينتهي المطرُ حالًا.

وظنّ أنّني قد أصبت، وبقينا معًا في الشرفة، أرحت يديَّ على الحاجز المُبتلّ، وأدْليت رأسي، فبلّل المطر بعضَ رأسي ورقبتي، ومرّت السحابةُ مِن فوقنا خفيفةً رقيقة، وأخذتْ أوراق الشجر بعد ذلك تسقطُ المياه التي اختزنَتْها مدّة طويلة، وعادت الضفادع لنَقيقها، واستيقظتِ البلابلُ وتنادت مِن مخابئها في الغصون، وصارتِ الدّنيا صافيةً رائعة أمامنا، قال لي وقد انْحنى بيده على سياجِ الشرفة، ومرّر الأخرى على شعري:

- أيّ منظرٍ بهيج هذا الذي نشاهده؟

ولقدْ كان لهذه العناية مِنه تأثيرها في نفسي، وأحسسْتُ أنّني أحاول جَهدي إخفاءَ صيحة طرب، قال:

- ماذا يطلبُ المرء بعد ذلك؟ إنّني قانعٌ الآن حتى أنني لا أطلب مزيدًا، إنني سعيد للغاية!

لقد قال لي مرّةً كلامًا يناقضُ هذا على ما أظنّ، قال لي: "إنه

ينشدُ السعادة ويرجو المزيدَ منها، الآن أصبح قانعًا، هادئًا، في حين كانَ قلبي مملوءًا بالدّموع الحبيسة والعبارات الساكنة، قلت: إنّي

أرى معك أنّ المنظرَ بهيج، ولكنّني حزينة لجَمال هذا المنظر، جميعُ ما يحوطني حبيبٌ جميل، في حين أحسّ بقلبي يضجّ بالشوق الطامعِ الغامض، ربّما لا يكون هناك ألمٌ يساورني ولا ذكريات قديمة.

فرفع يدَه عن رأسي، وراح يفكّر لحظة، ثمّ قال:

- لقد اعتدت أن أحسّ هذا الإحساس وخاصّة في الربيع، واعتدت كذلك أن أقول اللّيل، مُصطحبًا أمانيَّ ومخاوف جمّة، وكمْ كانت تلك صحيّة هنيئة! ولكنّ الحياة كانت أملي عندئذٍ، أمّا اليوم فقد خلّفتها ورائي، وأنا قانعٌ بما عندي، لقد عثرت على رأس مال الحياة.

وأضافَ هذه الجُملة في ثقة، ودونَ اكتراث، حتى أنّني اعتقدت، برغمِ الألم الذي أحدثَه إصغائي إلى كلامه؛ أنّه يقول الحقّ،

قلت:

- لكن.. أليس هنالك ما تتمنّاه؟

فقال:

- إنني لا أجري وراء المستحيلات.

ثمّ توقّف، وضربني على رأسي وقال:

- اذهبي لتنشّفي رأسك.

ثمّ مدّ يدَه على رأسي المبتلّ، وقال:

- أنتِ تحسدين الأوراق والأعشاب لابْتلالِها بماء المطر، وتريدين أنْ تكوني أنتِ بنفسك الأوراقَ والعشب والمطر، ولكني أقنع بالتمتّع برؤيتها، وبرؤية كلّ شيء آخر جميل سعيد.

فسألتُه وقد أخذَ قلبي يبطئ، ويبطئ في دقِّه:

- وهل تأسى على الماضي؟

ففكّرتُ برهة قبل أن يُجيب.. رأيت أنه يجبُ عليه أن يجيب بملء الصّراحة، قال في اختصار:

- كلّا مطلقًا!

فقلتُ وقد نظرت في عينيه:

- هذه ليست الحقيقة، هذه ليست الحقيقة، ألا تأسف على الماضي حقيقة؟

فكرّر قوله:

- كلّا، إني إذا حاولت استرجاعه كنت مضطرًا إلى أجنحة خيالية، وهذا محال!

- هل تتألّم لما حدث في الماضي، لما فرط منك أو مني؟

- كلّا على الإطلاق، لقد كان كلُّه بديعًا!

فقلتُ له، وقد لمست ذراعه قصدَ إرجاعه إلى جلسته الأولى:

- أعِرْني سمعَك.. لماذا لم تخبرْني مرةً أنك تريدني على أنْ أعيش كما تحب.. لماذا لم تعْطني الحرية التي كنت أستحقّها؟ لماذا امتنعتَ عن تعليمي وتثقيفي؟! لو كنت أعلنتَ رغبتك، أجل لو كنت عاملْتَني معاملةً مخالفة لتلك التي عاملتني بها؛ لما كان حدث شيء ممّا وقع!

قلتُ ذلك في صوتٍ معبّر بارد، خالٍ من السرور، فسألني متعجبًا:

- ما هي الأشياءُ التي كان يمكنُ أن تُتجنَّب؟ إذا نظرنا فيما تمّ.. لا أرى فيه أخطاء كلّ شيء على ما يُرام، أجل، على ما يرام!

أعادَ هذه الكلمة الأخيرة وهو يبتسم، فقلتُ في نفسي: "أهو حقيقة لا يفهم، أمْ لا يزال مع الأسف غير مستعدٍّ للفهم"، ثمّ سرعان ما انْفجرت قائلة:

- لو كنت عاملتني معاملة أخرى، لما كنت أعاقب هذا العقاب القاسي؛ لأنّه لا غبار مُطلقًا على هذا الاحتقار الذي تبديه لي، أجل لما كنت سلبتني أعزّ ما كنتُ أحرص عليه في الحياة، وظهر لي أنّه لا يكاد يفهمني:

- ماذا تقصدين أيّتها العزيزة؟

- كلّا، لا تقاطعني، لقد سحبت مني ثقتك، وحبّك، حتى احترامك لأنّني لا أعتقدُ حينما أذكر الماضي أنّك ما تزال تحبني.. كلّا، لا تتكلّم.. يجبُ أن أصرّح مرةً واحدة في حياتي بما كان يقطع

قلبي، ويؤذي صدري، أكانت غلطتي أنّني كنت أجهل الحياة، وأنّك أهملتني وتركتني أتعلّم من التجارب بمفردي؟ أهي غلطتي الآن كذلك، حينما تعلّمت وحاولت منذ سنة تقريبًا أن أعودَ إليك، فعاقبتَني بإهمالك وبادّعائك أنّك لا تفهم ماذا أعني؟ وأنت على الدّوام تصنع هذا لأفهمَ أنّه من المستحيل عليَّ اللحاقُ بك ما دمْت مُذنبة شقيّة، أجل إنّك تودّ أنْ تقودني ثانية إلى هذه الحياة التي ستسلُبني كما ستسلُبك السعادة إلى الأبد.

فسألني في حزنٍ ودهشة عظيميْن:

- كيف أبديت كلّ هذا؟

- ليس ببعيدٍ موقفك! بالأمس حيث قلت كما اعْتدت أن تقول، إنّني لن أطيقَ البقاء هنا، وإنّما يجب أن نمضي هذا الشتاء في "بيترسبرج"، في حين أنا أبغضُ "بيترسبرج" هذه! أنت تتهرّب من الكلام الصريح الواضح، وبدلًا من أنْ تعاونني فإنّني لا أسمعُ منك كلمةَ حبّ صريحة، وإنّني على يقين من أنّك، حينما أسقطُ السقوط المحتوم؛ ستلحق بي كذلك مُبتهجًا بهذا السقوط!

فقال في قسوة جافّة:

- كفى.. ليس من شأنك أن تقولي هذا الكلام، إنّما هو يدل على أنّك تحملين في قلبك ضغنًا، يدلّ على أنّك لا...

- لا أحبّك؟ لا تتردّد في القول..

صحتُ والدموع تطفرُ من عينيَّ، ثمّ جلست على المقعد، وغطّيت وجْهي بمنديلي، قلتُ في نفسي: "هكذا يفهم نفسيّتي" واختفى حبّنا السابق!

لم يقتربْ مني، ولمْ يحاول تهدئة ثائرتي، لقد تألّم ممّا قلته، وحينما تكلّم كانت نغمتُه باردة جافة، قال:

- إذًا، كنت لا تعنين أنّني لا أحبّك كما فعلتِ مرةً في حياتي.

قلتُ ووجْهي مختفٍ في المنديل، بينما الدّموع الساخنة لا تزال تتساقطُ بغزارة:

- مثلما أحببْتني فيما مضى!

- لو سلَّمنا بصحّة هذا، فالزمنُ هو الملَوم عليه، ونحن كذلك، لكلّ زمان حبّه الخاص به.

ثمّ سكت لحظة، وعاد يقول:

- هل أقولُ لك الحقيقة كلّها، إذا كنت تقصدينَ أنْ نتصارح؟ في ذلك الصيف الذي عرفتكِ فيه لأول مرة، اعتدت أن أقضي ليلي يقظًا، مفكّرًا فيك، وأحببْتك، وكنت خالقَ ذلك الحب، وأخذَ يكبر ويترعْرع في قلبي.. ولكنني حينما توجّهنا إلى "بيترسبرج" والبلاد الأجنبيّة كنت أصمّم على تمزيق ذلك الحبّ وتحطيمه في

الليالي النابغيّة المريعة، لا أقول إنّني حطّمته حقًّا، ولكني أقول إنّني حطّمت الجانب الذي سبّب الألم. وبعد ذلك، هدأت ولا زلت أشعرُ بالحبّ.

قلت:

- أنت تسمّيه حبًّا، ولكني أسمّيه إعدامًا! لماذا سمحت لي بدخول المجتمعات، ما دمت تبغضُها؟ وما دمت أمسكت عن محبتي من أجل اندماجي فيها!

فقال:

- كلّا يا عزيزتي، لم تكن المجتمعات السبب الحقيقي.

- لماذا لم تجرّب عليَّ سلطتك؟ لماذا لم تحبسني؟ لماذا لم تقتلني؟ لقد كان ذلك خيرًا، وأولى مِن فقدان كلّ منابع سعادتي، لقد كان يجبُ أن أكونَ سعيدة بدلًا من أكون شقيّة.

ثمّ شرعت أشهق وأخفي وجْهي مرة أخرى. وعند ذلك، دخلت "كاتيا" و"سونيا" الشرفة مُبتهجتين، طَروبتين، وهُما تتحدّثان في صوت مرتفع، وصمتَتا لدى رؤيتنا ودخلتا إلينا توًّا، وبقينا صامتين مدّة طويلة. لقد صرختُ صرختي وأحسستُ بالرضا والهدوء والسكينة، ونظرتُ نحوه، كان يجلس معتمدًا رأسه على راحته، حاول أن يُجيبني على نظراتي، ولكن كان يزفرُ بشدّة، ثمّ أخذ جلستَه السابقة.

فتوجّهت إليه، ثـمّ أبعـدت يـدَه عـن وضـعها، فنظـرتْ عينـاه إليَّ نظـرة عميقة حالمة، ثمّ قال، وكأنّه كان يتابعُ أفكاره:

- أجل، نحن جميعًا، وخصوصًا أنتنّ أيّتها النسوة عندنا خبرة

عظيمة بسفاسف الحياة، نقصدُ بذلك إرجـاع الحيـاة نفـسها. إنّ شـهادة الآخرين لا قيمة لها، في ذلك الـزمن لم تكـوني قـد شـارفتِ النهايـة مـن ذلـك الهُراء الفاتن الذي أحببْته منك، ولذلك تركتك تنـدفعين فيـه بمفـردك، شـاعرًا أنّه لا حقّ لي مطلقًا في أنْ أضغط عليكِ، ولو أنّ وقتـي كـان يـسعُ البحـث في أمثال تلك الشئون.

- إذا كنتَ أحببْتني حقيقة، فلماذا كنتَ تـدعني أقـاسي العـذاب وأنـت واقفٌ إزائي مكتوف اليدين!؟

- لأنّـه كـان مـن المـستحيل عليـكِ أنْ تـصغي إلى كلامـي، مهـما كنـت تحاولين، لقد كان الاختيارُ الشخصي لازمًا، واليوم قد حصلت عليه!

قلت:

- لقد كنـت تعمـلُ عمليـات حـسابية مُرهقـة في حـين أهملـت جانـبَ الحبّ!

وعدْنا إلى صمْتنا ثانية، ثمّ ابتدأ يقفُ فجأة، وشرع يـسير في الـشرفة، ثـمّ قال:

- إنّ ما ذكرتِه قاسٍ حقًّا، ولكنّه الحق. أجل، هو الحقّ.. أنا

المَلوم.

- دعْنا نتناسى كلّ ذلك.

قال:

- كلّا، لن يعودَ الماضي كرّة أخرى، مطلقًا.

وكان صوتُه يرقّ ويعذب وهـو يـتكلّم. فقلـت وقـد وضـعت يـديَّ عـلى عاتقه:

- إنّه لا يزال مخبوءًا.

فأخذ يديَّ، وضغطَهما، ثمّ قال:

- لقد كنتُ مُخطئًا حينما ذكرتُ أنني لا أندمُ عـلى المـاضي، إنّنـي آسـفٌ من أجله، إنّني أبكي ذلك الماضي العزيز، الذي لـنْ يعـود، مَـن المَلـوم؟ لـست أدري. الحب يبقى، ولكنْ على صورة غيرِ الصورة الأولى. يبقى مكانَـه، مُهمَـلًا فاقدًا كلّ قواه وروحانيّته، الذكريات ما تزالُ باقية، مشكورة، ولكن..

فانفجرتْ قائلة:

- لا تقلْ هذا. دعْ كلّ شيء، كما كان آنفًا أنا عـلى يقـين مِـن أنّ ذلـك في الإمكان.

ونظرتُ في عينيه، لقد كانتا صـافيتيْن هـادئتين، ولكـنّهما ليـستا في عمـقِ عينيَّ، وحتى حينما كنت أتحدّث كنت أعرفُ أنّ جميع أمانيَّ هَباء.

ابتسم في هدوءٍ ورقّة، بيدَ أني حسبتُ هذه البسمة بسمةَ عجوز، قال:

- إنّك لا تزالين صغيرة، بينما أنا أصبحتُ كهلًا، إنّ ما تبحثين عنه غيرُ موجود لديّ. لماذا نخدع أنفسنا؟

بقيتُ ساكتة وأنا أجابهُه، وأخذ قلبي يبطئ في دقّاته، ويهدأ، ومضى يقول:

- لا تحاولي أنْ تجعلينا نكرّر الحياة، لا تجْعلينا نتصنّع، دعينا نشكرُ الله أن جعل حدًّا ونهاية لهذه العواطف والمفاجآت. ولقد نُزِعْنا من لذّة حبّ الاستطلاع، انتهى بحثُه، وحصلنا على جانبٍ كبير من السعادة. والآن، يجب أن نتنحّى جانبًا، ونخلي الطريق له.

قال ذلك وأشار إلى "المربّية" التي تحمل "فانيا"، ووقف لدى باب الشرفة، وقال:

- هذه الحقيقة.. يا حبيبتي!

قال ذلك، ثمّ ضمّ رأسي إليه، وقبّلني قبلةَ صديقٍ قديمٍ لا أثرَ للحبّ العنيف فيها!

وكان الهواءُ البليل المُنعش ينبعث قويًّا لذيذًا من الحديقة في اللّيل، وأخذتِ الأصوات تهدأ وتسكن، وأخذت النجوم تضيء الواحدةُ تلو الأخرى مِن فوقنا. نظرتُ إليه وأحسستُ فجأة بأنّ قلبي يضيء، وبدا لي أنّ سبب متاعبي قد زال وانْمحى، وتحقّقتُ فجأة أنّ الشعور القديم الذي كنا نريدُ استعادته مع الحياة الماضية لم يكنْ

فقط مستحيلَ التحقيق، ولكنه كان كذلك مؤلمًا مقلقًا، لو قدر له أنْ يتحقّـق، ثمّ قال:

- حان وقت تناول الشاي.

فذهبنا إلى الرّدهة، وقابلنا "المربّية" تحمل الطفلَ لدى البـاب، أخذتـه في ذراعـي، غطّيـت رجليـه اللـدنتيْن العـاريتين، وضـغطته إلى صـدري، وقبّلتـه بشفاهي في جنون، وفتحَ أصابع يدِه الصغيرة وهـو شـبهُ نـائم، وفـتح عينيْـه الصغيرتين، كما لو كان ينظرُ إلى شيء أو يستعيدُ ذكرى عزيزة، وسرعان ما ركَّز بصرَه فيَّ، ولمعَ فيه طيـفٌ غريـب. وانْفرجـت الـشّفتان الـصغيرتان قلـيلًا، ثـمّ أطبقتا ثمّ انفرجَتا ثانيـة عـن بـسمةٍ رقيقـة بريئـة. قلـت في نفـسي: "ولـدي، ولدي.. ولدي..". وضممْته إلى صدري في سرورٍ لا يقـدر، واهْتـز كـلّ عـضو في جسمه من شدّة الضمّة، وانحنيت أقبّل قدميه الـصغيرتين البـاردتين، وبطنَـه، ويدَه، ورأسَه. وخفَّ زوجي إليَّ، وعندَها أخفيت وجهَ الصغير ثمّ كشفتُه مـرة أخرى، قال زوجي وهو يضعُ أصبعَه تحت ذقن الصغير:

- "إيفان سرجيس"

ولكنّني أسرعت وغطّيت وجه "إيفان سرجيس" ثانية، لم يكن هنالك أحدٌ يـدمنُ النظـر إليـه مـثلي، نظـرتُ إلى زوجـي وابتـسمت عينـاه، وهـو ينظـر إليَّ كذلك، فرأيتُ فيهما راحـة وسـعادة واسـتقرارًا لم أعـثرْ عليهـا منـذ زمـن طويل.

وختمَ هذا مأساة زواجنا، وأصبح الـشعورُ القـديم ذكـرى غاليـةً نفيـسة، ولكنّ حبًّا جديدًا لطفلي ولوالد طفلي وضعَ أساسَ حياة جديدة تختلف تمـامَ الاختلاف عن الحياة الأولى، والسعادة الأولى. وهذه الحياة وتلـك الـسعادة لا تزالان حتى اليوم.

تمت